دروس حديثة من قصة نوح كما وردت في القرآن

Modern lessons from the story of Noah as mentioned in the Qur'an

إعداد

عبد الباقي يوسف

Abdul Baqi Youssef

أديب سوري مؤلف التحليل الروائي للقرآن

Doi: 10.21608/jnal.2022.249286

استلام البحث	٢٥ / ٤ / ٢٠٢٢
قبول النشر	١٠ / ٥ / ٢٠٢٢

يوسف، عبدالباقي (٢٠٢٢). دروس حديثة من قصة نوح كما وردت في القرآن. ***مجلة الناطقين بغير اللغة العربية*** ، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، مج(٥)، ع(١٤)، ص ص ١١ – ٤٦.

http://jnal.journals.ekb.eg

دروس حديثة من قصة نوح كما وردت في القرآن

المستَخلص :

مع سيدنا نوح عليه السلام، ننتقل إلى مرحلة مفصليّة من تاريخ الإنسان، وهي مرحلة انتهاء الإنسان تماماً من سطح الأرض، وما بقي من الإنسان هو فقط وجود نوح ومَن معه في سفينة على الماء، وما دون ذلك، فلا وجود لبَشَرٍ قط. إذن، سوف يقود نوح عليه السلام، المسيرة الجديدة الثانية للبشرية عندما تستوي سفينته [**عَلَى الْجُودِيِّ**] هود٤٤ .

وسوف يكون الأب الثاني للبشر بعد آدم، والخلاف بين الرَجلَين المؤسّسَين للذريّة البشرية، أن الأول خُلقَ دون أب أو أم، وقد وجد نفسه بَغتة في الجنة، والثاني وجد أن الطوفان قد سَحَقَ كل كائن بشري أينما كان تواجده من سطح الأرض، ووجد نفسه ومَن معه في سفينة، وعندما تستوي سفينته [**عَلَى**]جبل [**الْجُودِيِّ**]، سوف يدرك عظمة مسؤولية تأسيس إنسان جديد سوف يخلقه الله عز وجل.

ولذلك سيكون حريصاً على الإنسان كل الحرص، وخائفاً عليه كل الخوف، وكذلك قلِقاً عليه كل القَلق، وهو الذي قد خرج للتو من طوفان سحَق الأخضر واليابس، بما في ذلك أكثر الناس قرباً إليه، فلذّة كبده، وحليلته، وكل ذلك تحوّل في هنيهة إلى شيء من الماضي الذي لم يعد له أي وجود.

تمهيد :

سوف تبدأ مسيرة جديدة للإنسان، وسوف تشرق عليه الشمس مرة أخرى، سوف يهطل المطر مرة أخرى، سوف ينبت الزرع مرة أخرى، سوف تتكاثر أشكال الدواب والطيور مرة أخرى، سوف تعود الحياة بكل مقوّماتها وزَخَمها مرة أخرى، بعد أن تلقّت البشرية درساً بليغاً نتيجة تماديها في الطغيان. ويبقى الإنسان مسكوناً بالخوف من الطوفان كلّما اشتدّ المطر، لكن بعض المؤشّرات الإلهية تطمئنه بأن ذلك وإن اشتدّ بغزارة، فهو مطر خير وإنبات، وليس مطر طوفان وسحق، ومن بعض علامات الطمأنينة ما يظهر في كبد السماء من ألوان قَوس قُزحية عند هطول المطر. لكن لم يختف الطوفان من تعرّضه للحياة البشرية، أو الطبيعية، ولو بشكل جزئي، فهو يمكن أن يتعرّض لأشخاص، أو لبيوت، أو لقرى، أو لمدن، أو لدول، مِمّا يجعله جزئياً وليس عاماً وشاملاً للأرض برمّتها. وذلك من ألوان العقاب للناس عندما يتمادون في الطغيان والفسوق والفجور.

يقول الله تعالى ذكرُه:

[لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ]سورة الأعراف، الآية٥٩

تُفتَتَح الآية بمقدّمات حلول الطوفان، وأن الله يرسل لأولئك القوم رسولاً منهم وإليهم كي ينذرهم، لعلّهم يتراجعون عَمّا هم فيه من التمادي في العصيان قبل أن ينزل العقاب الشديد الذي كَمن في الطوفان: [**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**].

كان يمكن القول[**أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**]، دون [**لَقَدْ**]، لكنها جاءت لمزيد من التأكيد والتوثيق، ويجوز أن تكون جواب قسم محذوف، فأنذرَهم ونصَحَهم كي يتراجعوا عَمّا هم فيه من العصيان، ولدى بعض علماء الأنساب هو : (نُوح بْن لَامَك بْن متوشلخ بْن أَخْنُوخ وَهُوَ كما قيل إِدْرِيس النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَام، اِبْن برد بْن مهليل بْن قنين بْن يانش بْن شِيث بْن آدَم عَلَيْهِ السَّلَام).

[**فَقَالَ**] لهم: [**يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ**]، ودعوا الشرك، [**مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ**]، فهؤلاء كانوا يصنعون التماثيل ويعبدونها، وكانوا يطلقون عليها أسماء مثل: ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرا. ولعلها أسماء لأناس صالحين، ولكن ما هو غير صالح أنهم باتوا يعبدون هذه التماثيل التي صنعوها، وأطلقوا عليها الأسماء نسبة إلى الصالحين: [**إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**].

اليوم الذي لاأحد ينفعكم فيه، ولا أحد بمقدوره أن ينجيكم [**عَذَابَ**]عاقبة الشرك بالله الذي [**مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ**].

وما تستخلصه هنا، هو ألاّ تعطي للناس أكثر من أحجامهم البشرية، ولا يمكن لأي مخلوق قط أن يرتقي إلى درجة أن يُعبَد، فالإنسان هو مخلوق يَعبد الله وقد خلقه الله كي يعبده، لا أن يعبد مخلوقاً مثله، أو يصنع تمثالاً، أو رمزاً لمخلوق ما ثم يعبده، وليس بالضرورة أن تنحصر العبادة في السجود أو الركوع، بل أن تأمل من هذا الرمز ما لا يجوز لك أن تأمله إلاّ من الله.

[**قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**] سورة الأعراف، الآية٦٠

كلمة [**الْمَلأُ**]، تشير إلى الملء، بمعنى قد امتلأت الأرض بالمفسدين، والاستثناء يكون نادراً جداً، تقول فلان صرّح بقوله على الملأ، أي على الجميع. [**قَالَ**]له [**الْمَلأُ**]المجموع [**مِن قَوْمِهِ**] كجواب على نصحه لهم: [**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**].

رفضوا حتى التفكير بقوله، كونهم اعتبروا الكلام صادراً من شخص يعيش [**فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**]. بل أنهم أرادوا أن ينالوا حتى من الذين اتبعوه: [**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**]الشعراء١١١.

وذلك كي يسدّوا الطريق على الذين يريدون الإيمان به، وهنا تجلو نزعة الاستكبار لديهم، حيث إنهم اعتبروا أنفسهم فوق الفئة التي رأوها دونهم سواء بالنفوذ، أو المال، أو ما شابه.

[**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**] سورة الأعراف، الآية٦١

أجابهم رافعاً صفة الـ [**ضَلاَلَةٌ**]عن نفسه: [**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ**]، ومبيّناً الحقيقة: [**وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**].

لم يقل (أنا)، بل: [**وَلَكِنِّي**]، أي لم آت من تلقاء نفسي حتى تتهمونني بـال[**ضَلاَلَةٌ**]، ولو كنت أتيت من تلقاء نفسي، لكان لكم أن تصفونني بذلك [**وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**]. فكان يواظب على محاولات إقناعهم حتى إنهم: [**قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**]هود٣٢.

يقول لهم بأن[**رَّبِّ الْعَالَمِينَ**]هو الذي أرسلني من أجل إصلاحكم، ومن أجل نفعكم، وإنذاركم وأن الله سوف يعاقبكم على ما أنتم به من عصيان، ويوقفكم عند حدودكم إن رفضتم الانصياع لأمر الله، وما أنا سوى حامل هذا البيان الإلهي إليكم.

[**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**] سورة الأعراف، الآية٦٢

أوصل لكم ما كلّفني به [**رَبِّي**] وأقدّم لكم النصح، وأنذركم أن لدي معلومات [**مِنَ اللّهِ**] بشأنكم [**تَعْلَمُونَ**]ها، إن لبثتم في عِنادكم واستهتاركم بِما[**أُبَلِّغُكُمْ**] به من [**رِسَالاَتِ رَبِّي**]. فالأرض ليست كوكباً مجهولاً لاصاحب له، يفعل الإنسان فيه ما يشاء، ويطغى ما يشاء، فعليه أن ينصاع لأوامر صاحب هـــذا الكوكب، وإلاّ فإنه يوقفه عنـــد حدّه رغماً عن أنفه مهما كان نفوذه ممتدّاً، ومهما امتلك من مـــــال وعتاد، ومهما استقوى بأعداد هائلة من رجال حوله، فإن الله يفتّت كل ذلك بين ليلة وضحاها.

وانظر إلى بلاغة الكَلم الطيِّب المُبَطَّن بقوّة التعبير: [**وَ**]اعلموا بأني [**أَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**]. إن نصحي لكم هو السبيل لنجاتكم مِمّا أعلمني به الله بشأنكم.

[**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**] سورة الأعراف، الآية٦٣

ما يزال يفعل كل ما بوسعه حتى يثنيهم عَمّا هم عليه من التمادي في العصيان، وهذا درس بليغ نتعلّمه، فعندما يستشري الفساد في مجتمع، ويكثر فيه الفجور، ويستهزئ الناس بالقرآن، وبالدعاة إلى الحق، فذلك لايعني فشل أئمّة الدعوة إلى الحق، بل يعني أن الناس طغوا إلى درجة أنهم باتوا يستهزؤون برسالات الله وأنبيائه ورسله، وكل أشكال الدعوة إلى صراط الله المستقيم.

فنوح عليه السلام، لم يقصّر في دعوته، بل نجح في الإبلاغ بما كلّفه به الله عز وجل، لكنه رأى الجحود والاتهامات الضالة من الناس، ومحمّد صلى الله عليه وسلم، بلّغ الناس بِما تلقّاه من الله سبحانه وتعالى، لكنهم أبوا ذلك، فما كان عليه سوى أن يترك أحب البقاع، والمكان الذي أُنزل عليه ما يزيد عن ثلاثة أرباع الوحي فيه، وأيضاً المكان الذي فيه ذكرياته الطيّبة حيث التقى فيه أم المؤمنين الأولى خديجة عليها السلام، كيف أنه كان يهرع إليها عندما كان يأتيه الوحي وهو يقول لها: "زملوني زملوني"، فخروجه بالقوة من كل ذاك الواقع الذي ترعرع في جنباته، ويعبق برائحة طفولته، وتشكّلت فيه معالم شخصيته، لم يكن لأنه قصّر في أداء الرسالة، بل لأن الناس استشرى فيهم وباء الطغيان وباتوا ينكرون كل ما هو حق، ويقبلون كل ما هو ضلال،

فيبقى الأمر بالتدخّل الإلهي لإيقاع العقاب المباشر والصارم بحق هؤلاء، لأن الله لم يخلق الأرض ليعيث فيها المفسدون فساداً، بل لصلاح الإنسان واستقامته وفضيلته، وأن يستمتع بِما يُخرج الله تعالى من خيرات طيبة، ويلبث النَكَدُ لأهلِ النَكَد.

فترى البعض يكيلون الاتهامات لأهل الدعوة والصلاح، ويوصمونهم بالفشل في إيصال الحق إلى الضالّين، بل يتمادى البعض أكثر فيحمّل الدعاة - بكل تفرّعات الدعوة من إمامة وخطابة وفقه وتفسير، وما إلى ذلك من علوم شرعية تدعو إلى الحق- مسؤولية هذا الإعراض عن دين الله. فالداعية تكمن مهمته في إبلاغ الناس ونصحهم، وتقديم الحجج والأدلة الدامغة إليهم كي يصلحوا من شأنهم ويتقوا الله.

أمّا إذا أصرّوا على عِنادهم واستهزأوا، فذلك لاينال من مهمّة الداعية، أو من قيمته، وعبر التاريخ البشري، فإن لله سبله في كيفية إيقاع العقاب بالضالّين.

فالدعاة مصابيح الله في الأرض، والله جل جلاله يؤازرهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ"[١]. لماذا؟ لأن هذا الذي يؤذي ولياً من أولياء الله، إنما يريد أن يُطفئ مصباحاً من مصابيح الهداية في الأرض.

[**أَوَعَجِبْتُمْ**]، جاءت الكلمة تعجّبية واستفهامية في الوقت عينيه، من خلال همزة التعجّب وواو العطف في مبتدئها:[**أَوَعَجِبْتُمْ**] أيها الناس [**أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ**].

فلا تعجبوا فقد [**جَاءكُمْ ذِكْرٌ**] هدى [**مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ**]، وليس على مخلوق آخر لا تعرفونه من الملائكة أو الجن، فأنا أعرفكم وأنتم تعرفونني، ونحن من أصلاب بعضنا البعض.

فلا تعجبوا، فإن هذا الرجل الذي لايعجبكم هو الأقرب [**لِيُنذِرَكُمْ**] من مغبّة ما أنتم فيه [**وَلِتَتَّقُواْ**] بالتوبة إلى الله [**وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**]فيعفو لكم عمّا قد سَلَف.

[**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ**] سورة الأعراف، الآية٦٤

جاءت الكلمة مباشرة وبليغة [**فَكَذَّبُوهُ**]، وهذه شهادة جلية من الله تعالى بأنه صادق، فالذي يكذب، لا يُكَذَّب حتى لو كُذِّب، لأنه كاذب. لكن الذي يُكَذَّب، لابد له أن يكون صادقاً حتى يُكَذَّب في صدقه[**فَكَذَّبُوهُ**]. تبرئة لنوح عليه السلام من تكذيبهم له، ومصادقة على صدقه. حيث كانوا يتداولون فيما بينهم: [**مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ**]المؤمنون٢٤.

عندما أبلغهم بكل ما أرسله الله به [**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ**

[١] صحيح البخاري

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً* ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً]نوح ٥- ٨.

[**فَأَنجَيْنَاهُ**]، استخلصه الله تعالى [**وَ**] استخلص [**مَعَهُ**] المؤمنين [**الَّذِينَ**] آمنوا وآزروه، وهم قلّة، وأنجاهم بأن جعلهم [**فِي الْفُلْكِ**] السفينة.

لكن هذا الطوفان العام حصل بعد تسعة قرون ونصف من الدعوة المستمرة، [**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً**]العنكبوت١٤.

وحصيلة كل هذه القرون من الدعوة لم تنتج سوى عن نحو ثمانين شخصاً بين رجل وامرأة من كافة سكان الأرض، وهم من الطبقة الفقيرة. حتى إن الوجهاء كانوا يشترطون عليه أن يطرد هؤلاء حتى يأتوا إليه، وكان يرفض هذا المطلب، وبعد كل هذا الجهد الدؤوب وهذه القرون الطويلة من الدعوة، وهذه النتيجة القليلة من المؤمنين، جاء أمر الله إلى نوح عليه السلام بأن يصنع سفينة كبيرة ويستعد لوقوع العقاب على القوم، ونجاته مع مَن آمنوا من خلال دخولهم إلى السفينة. ثم أن يجمع من أشكال الحياة من حيوان ونبات زوجين، وبذلك فإن السفينة لابدّ لها أن تكون ضخمة حتى تستوعب كل ذلك، فبالإضافة إلى المؤمنين الذين معه، هناك بعض أنواع الحيوانات تكون ضخمة مثل الفيلة، أو الإبل، أو البقر، أو ما شابه، كما أن وجود كل هذه الحيوانات في مكان واحد يشكّل خطراً عليها، فبعضها مفترسة، وبعضها وديعة، فلا بدّ من صناعة أقفاص لتحمي بعضها من بعض سواء الحيوانات الصغيرة، أو الكبيرة، كما أن هذه السفينة تحتاج إلى واقية حتى تقي نزول المطر على مَن بداخلها، وما إلى ذلك من عوامل الاستعدادات.

لكن وبدل أن يتعظ القوم من ذلك وهم يرونه منهمكاً في عمله هذا، وكان بإمكانهم أن يتوبوا حتى اللحظات الأخيرة، قالوا: [**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ**]المؤمنون٢٥.

ويتداولون فيما بينهم على سبيل الاستهزاء إن كان نبياً، أو نجّاراً، وأنه يقوم بصناعة سفينة ضخمة في موضع لا نهر فيه، وكانت زوجته واسمها (واهلة) تقول بأنه مجنون، وهذا العمل يستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً. قيل: (كان الرّجل من الكفّار يحمل ولده إلى نوح عليه السلام فيريه إيّاه ويقول: يا بني لا يفتننّك

هذا الشيخ المجنون عن دينك ودين آبائك، فلمّا ضاق ذرعاً دعا على قومه: [**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**]نوح٢٦، فاستجاب الله دعاءه وأمره بغرس شجر الساج، فعلم نوح عليه السلام أن في الأمر مهلة، فأمر بغرس الأشجار عشر سنين، وأدركت القطع بعد أربعين سنة، ثم أمر الله بقطعها واتّخاذ السفينة منها، وألهمه كيفيتها فعمل السفينة على خلقة البط، وجعل لها رأساً كرأس الدّيك، وذنباً كذنب الطّاووس، وصيّرها أربعة أطباق، طبقاً له ولأصحابه، وطبقاً للبهائم والوحوش، وطبقاً للسّباع، وطبقاً كالسقف لئلاّ يصل المطر إليهم من نحو السّماء، وقيّرها داخلاً وخارجاً، وسدّها بالمسامير، وكان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها

ثلاثين، وفرغ من ذلك فبينا ابنته تختبز إذ فار التّنّور بالماء وفجّرت الأرض عيوناً فبادرت إلى أبيها تخبره، فنادى نوح في أصحابه فاجتمعوا إليه ودخلوا السفينة، وحشر الله إليه حيوان الأرض فأخذ من كل جنس زوجين، فكانت أبواب السماء مفتّحة بماء منهمر والأرض متفجّرة بالماء أربعين يوماً، [**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**]) هود٤٤ .

إذن عندما انتهى كل شيء، [**وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**]هود٤١ ، [**وَ**] ركب الجميع في السفينة: [**أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**]، فقد أغرقهم الله بسيل الطوفان، بِمَن فيهم زوجته وأحد أبنائه. فهؤلاء جميعاً الذين تعرضوا للغرَق: [**كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**]. ونظير ذلك يكون بأن مَن أنجيناهم: آمنوا [**بِآيَاتِنَا**].

وهذا يعني أن كل جبال الأرض مهما بلغ ارتفاعها، فإنها قد تعرّضت للفيضان الذي غمرها، حيث تحوّلت الأرض كلها إلى مساحة سويّة من الماء، ولا شيء يظهر فوق الماء باستثناء سفينة نوح. لكن التكاثر البشري اقتصر على ذرية نوح عليه السلام، وذلك من أبنائه الثلاثة سام، وحام، ويافث [**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ**]الصافات٧٧.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه). أما أشكال الحياة الأخرى، فقد تكاثرت أيضاً مِمّا كان في السفينة [**قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**]هود٤٠.

يقول وهبُ بنُ منبِّهٍ: (سامٌ هو أبو العربِ وفارسَ والرومِ وأهلِ الشامِ وأهلِ اليمنِ، وكان هو القيِّم بعدَ نوحٍ في الأرض، ومن ولدِهِ الأنبياءُ كلُّهم، عربُهم وعجمُهم، وجعلَ اللهُ في ذريته النبوةَ والكتابَ، وهو الّذي اختطَّ مدينةَ القدسِ، وأسَّس المسجدَ الأقصى، وكان مَلِكًا عليها، وحامٌ أبو السودانِ وأهلِ الهندِ والسندِ والزنْج والحبشةِ والنوبةِ وكلِّ جلدٍ أسودَ، ويافثُ أبو التركِ ويأجوجَ ومأجوجَ والفرنجِ).

فبعد كل ذاك الكلام الطيب، وذاك الإنذار المبين، والمقابلة بالتكذيب والاستهزاء، كان تدخل الله سبحانه وتعالى، [**إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ**]. فقد أعماهم الاستكبار عن رؤية الحق والإيمان به. وهذا درس نتعلّمه، وهو ألاّ نتّخذ مواقف مسبقة من الآخرين قبل أن نصغي إليهم بشكل دقيق وجيد، وأن نؤمن بما ينفعنا، ونتجاهل عَمّا لا ينفعنا. فليس المهم أن تسمع الحق، بل المهم أنك تأخذه وتنتفع به، وليست ثمة معضلة أن تسمع شخصاً يقول الباطل، المهم أن باطله لايجد سبيلاً للتأثير عليك، بل تكون أكثر ثباتاً وعزيمة على الحق الذي أنت فيه، فإن قوّة الإيمان تقوّيك على الباطل وتجعله ضعيفاً أمامك، وضعف الإيمان يضعفك أمام الباطل، ويجعله قوياً عليك، وقد اختتمت الآية بكلمة بالغة الدلالة [**عَمِينَ**]. وهذا ليس عمى العَينَين، لأنهم كانوا يرون بأعينهم، بل هو عمى القلب، لأن القلب لايخشع بما ترى العينان من آيات الله في الأرض وفي الناس.

الإنذار البائن

يقول الله عز وجل:
[**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**] سورة هود، الآية٢٥
[**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**]. فقد اعتُبِرَ جميع سُكّان الأرض من[**قَوْمِهِ**]. والعمر المديد الذي عاشه نوح عليه السّلام نحو تسعمائة سنة كان كافياً للانتشار إلى جَميع مَن كانوا على الأرض. وبالطبع فنحن مع نوح عليه السَّلام ما نزال في مرحلة بدايات الإنسان، وقد جاء بعد آدم عليه السّلام. أي لم تكن هناك كثافة سُكّانية كما الآن بمليارات البشر. فالآية الكريمة تُعيدنا إلى تلك الوقائع كي يتذكّرها الإنسان إذا استشرى الفَساد في الأرض. وقد اختُتِمَت المَحاور الثلاثة السّابقة بالتذكير، فكانَت قفلة الآية السابقة: [**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**].

والآن، تَذكَّروا: [**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**]. وهذا الكلام في كتاب الله تعالى يبقى مفتوحاً لأبناء كل زمانٍ ومكان. فمهما كانَت أعداد البَشَر، ومهما بلغوا من القوّة والتّمكين في الأرض، فإن الله قادرٌ أن يَسحقهم جَميعاً، ولا يُنجي إلاّ الصّالحين، حتى لو كانوا بِضعة أشخاص فقط من كل هذه المليارات البشرية. وإذا كان قد أغرَق أولئك الناس بالطوفان وبالطبع كانت أعدادهم محدودة قياساً بأعداد البشر الآن، فإنه قادرٌ أن يسحقَ كل هذه المليارات ليس بالطوفان، بل بِما هو أصغر من قطرة ماء واحدة من ذاك الطوفان. وها قَد رأينا كيف أن فيروساً صَغيراً، أصغر من أن يُرى استطاع أن يحجر على البشريَّة جَمعاء، رَغم امتلاكها لكل هذه الترَسانات من الأسلحة الفتّاكة، وكل هذه الجيوش المُتدرّبة بشكلٍ دقيقٍ لمواجهة المخاطر. وهذا التقدّم العلمي فقد ترك الجميع كل شيء ولاذوا ببيوتِهم وهم يرتجفون ذُعراً خشية أن يلحقهم هذا الفيروس الصغير الذي يُسمى (كورونا). وقد أُغلِقت الأسواق، والمطارات، بل وحتى دور العِبادة في حظرٍ عامٍ شمل الكُرة الأرضيّة برُمّتها، وقد أصبحت الكرة الأرضية بِما فيها في قبضةِ هذا الفيروس الذي هو أصغَر من أن يُرى بالعَين المُجرَّدة. فقد كان الطوفان عالمياً شمل الكرة الأرضية كلّها، وكذلك هذا الفيروس عالميٌّ شمل الكرة الأرضية كلّها، وهو يُهدّد البشريّة كلّها بالفناء.

فإذن، لا ينغرّ الإنسانُ بأموالِه، وحضارَته، وقوّته، وأسلحته، وأعداده، فهو في الحقيقة أضعَف مِن ان يواجِه فيروساً صغيراً إذا سُلِّطَ عليه.

فللتذكرة أيُّها الإنسان: [**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**] الذين فسدوا وطغوا في الأرض، واستشرى فيهم الفساد والطّغيان. أرسلناه ليبيِّن لهم بأن الله لم يخلق الإنسان للفَساد، بل للصَّلاح، فقال: [**إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ**]. أرسلني الله لأنذركم من مغبَّة ما أنتم به من كفر.

[**مُّبِينٌ**]. هذا ليس كلاماً فحسب، بل لدي بيِّنات من الله تثبت لكم بأنني رسوله إليكم.

فالرَّسول لا يُنذر فقط، بل يبيِّن، ويأتيه الله تعالى ذكرُه بالبراهين البيِّنة للناس، وبذلك لا تبقى لهم حجّة للاستمرار في الكفر. فقد باتَ كل شيءٍ بيِّناً، ويوجد [**نَذِيرٌ مُّبِينٌ**] منهم. فالكُفر هُنا يكون عِناداً واستكباراً.

نَجاةُ العِبادة

[**أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**] سورة هود، الآية٢٦

فقد ترك الناسُ بعد آدم عليه السّلام، عِبادَة الله عزّ وجلّ، وغدوا يعبدون آلهةً وأوثاناً وقد سادَت الوثنيّةُ فيهم. لذلك: [**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**]. والآن: [**أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ**]. دعوا ما تعبدون من دون الله، واعبدوا الله: [**إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ**]. الخَوف على شخصٍ ما، ينبُع من مقدار الحِرص على سلامة ذاك الشخص، وعدم تعرّضه للعذاب. والخوف عليه، هو حبٌ له، فشخصٌ لا تُحبّه لا تخاف عليه إذا رأيته يودي بنفسه إلى المهالِك.

فإذا أصررَتم على عِبادة ما دون الله: [**إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**]. فهناك عِقابٌ يلقاه الذين يخرُجون عن عِبادة الله الذي خَلَقهم ليؤمِنوا به ويَعبدوه، وإذا أذنَبوا، يستغفرونه. وكما أنّ يوم القيامة يكون بالنسبة للمؤمنين نَعيماً لأنَّهم يدخلون الجنّة، فإنّه يكون للكافِرين أليماً، لأنَّهم يدخلون النّار.

[**إِنِّيَ**]. أي أنا منكُم وأنتم مِنّي، أنا ابن جلدتكم، وأنتم أبناء جلدتي، لذلك: [**أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**].

حججُ المُكذِّبين

[**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**] سورة هود، الآية٢٧

هذا هو معدن الإنسان المُتعَجرف الذي تقول له بأنَّك خائفٌ عليه من مَغبّة المضِي في مسلك الاعوجاج، وتدعوه إلى الاستقامةِ حِرصاً عليه، بَيد أنَّه يستهزئ بك استكباراً ويُصرّ على اعوجاجه. [**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**] ٢٩، ٣٠. فهذا هو العِناد الذي يتَّسم به بعضُ الناس، وهم يتوارثون هذا العِناد عن بعضِهم البعض. لكن الذي ليس به عِناد، حتى لو كان كافِراً، فإنَّه لا يستهزئ، بل يستمع ويتحاوَر حتى تراه شيئاً فشيئاً يؤمن بوحدانيَّة الله، وأنّ القرآن كِتابُ حقٍّ من عند الله.

ثم تراه بعد فترةٍ يترك الكُفر ويدخل الإسلام، وأحياناً يُصبح داعية في مجتمعه للإسلام كما حصل بالنسبة للكثيرين من أبناء دولٍ غير إسلامية، ومنهم مشاهير في مجالات شتَّى. فالطامة تكمن في الاستكبار والعِناد، وليس في الإيمان فقط، بل في كل شيء. فالمرأة المُستَكبرة والعنيدة، تفشل حتى في زواجِها وأمومتها، والرّجل المستكبر العنيد يفشل حتى في زواجه وأبوَّته.

فهنا تُشير الآية الكريمة إلى عُقدة التّعالي عند بعض الناس. وهنا تنقسم هذه العُقدة إلى قسمَين. قسمٌ يميل إلى ممارَسة التّعالي، ويريد أن يكون مُتعالياً، وقسم آخر يميل ممارسة التعالي عليه، فيُريد أن يكون مُتعالَى عليه، ودوماً يُريد أن يصنع هذا

الشخص الذي يمكن له أن يتعالَى عليه، فيمارس عليه التّعالي، وهو يخضع ويستجيب. والقسم الثاني لا يُقدّر الشخص غير المُتعالي مهما كان فاضِلاً وطيِّباً، ويُقدّر الشخص المُتعالي مهما كان سيّئاً وخبيثاً. فيشترك القسمان في تبجيل الشخص المُتعالي، والاستهزاء بالشخص غير المُتعالي.

على هذه الأرضية المُتعالية في قسمَيها: [**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ**]. [**الْمَلأُ**] إشارة إلى الامتلاء. فـ [**الَّذِينَ كَفَرُواْ**] كانوا هم [**الْمَلأُ**]. أي الأكثريَّة السّاحِقة كما لو أنك تقول بنسبة ٩٩%. من جميع مَن كانوا في الأرض قاطِبةً. فلم يبق إلاّ القليل جداً ولعلَّهم كانوا نحو ٨٠ شخصاً بين رجالٍ ونساء. وهم الذين أصبحوا في سفينة النّجاة مع نوح عليه السلام، عندما وقع الطوفان الأكبر، وهو الطوفان الأول من نوعه بهذه العُمومية والشمولية بحيث عَمّ الناس جميعاً، وعمّ الأرض كاملةً.

فالعِقابُ العام يكون عندما يُصبحُ الفَسادُ مستشرياً وعامّاً، ولذلك بعد الطوفان الأكبر لم يعدْ الفساد عامّاً في الأرض قاطِبةً، وغدا الناسُ في صلاحٍ، لكن بقي الفساد سواء عند الأفراد، أو عند الجماعات، أو حتّى عند بعض الأقوام. وهنا باتَ العِقاب يستهدف الرُّقَع التي يكون فيها الفاسِدون، عندما يعمُّ الفسادُ في تلك الرُقَع، دون أن يمتدّ إلى رُقَعٍ أخرى حتى لو كانتْ مُجاورة لها، أو حتى ملاصِقة بِها. وقد ذكر القرآن بعض الأقوام ألتي لقَت العِقاب العام، وأنجى الله فيها الصّالِحين، والعِقاب العام الذي أصاب قوم لوط، لم يكنْ هناك من النّاجين سِوى قلّة قليلة جداً: [**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**]الذاريات٣٥، ٣٦. وقد اقتصَر العِقابُ على البُقعة التي كان يعيش فيها والتي تُعرَف بـ (سادوم). وكان في نفس الوقت ابراهيم عليه السّلام يعيش في منطقةٍ أخرى، وقد ذهب لوط وابنته إليه، ولوط هو ابن أخي ابراهيم عليهما السلام.

والله سبحانه وتعالى يُمهل الفاسِدين الامهال تِلو الإمهال، ولا يُوقع العِقاب سواء على الأفراد أو على الجماعات إلاّ بعد أن يستفحِل فيهم الفساد حتى النُخاع، وهم يُصرّوا عليه بعنادٍ شديدٍ حتى يُصبحُ الفَسادُ عامّاً، ويُصبحُ الصلاحُ استثناءً. هُنا يأتي العِقاب بعد كل فُرَص الإمهال تلك، ويُنجي الله عز وجل الصالِحين بسبلٍ شتّى. وإن كان ذلك على مستوى الجَماعات، او الأقوام، أو الدول، أو المُدن، فإنَّه يكون أيضاً بموازاة ذلك على مستوى الأفراد. فيُمكن لشخص أن ينحرف في موقفٍ ما، أو في نقطة ضعفٍ ما، ولكنه سرعان ما يندم ويَتوب، ولا يكُون مُصرّاً على الإنحراف. ولعلّ ذلك يتكرَّر، لكن تبقى نسبة الصّلاح كبيرة جداً لديه، إلى جانب بعض الذُّنوب التي ارتَكَبها وندِمَ عليها، بل كان يُدين نفسه فيها بعد أن يرتكِبها ويعزم على عدم العَودة إليها، لكن لم تكن حياتُه خالية من الذُّنوب: [**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**]آل عمران١٣٥. فالإصرار هو عدم الاعتراف بالذّنب على أنّهُ ذنب، وبالتّالي عدم النّدم على ارتكابه والاستمرار

فيه، في حين أن النّدم هو اعترافٌ بالذّنب على أنهُ ذنب، وبالتّالي الندم على ارتكابه، وعدم الإصرار عليه:
[وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]التوبة١٠٢. ولذلك يدخل الناس الجنّة رَغم وجود سيّئات في ميزان حسابِهم، لكن كفّة الحَسَنات تكونُ راجِحة عليها، فيغفر الله تلكَ السيّئات كما لو أنها لم تكنْ. وهذا لا يكون في الآخرة فحسب، بل في الدُّنيا أيضاً، لأنه معلومٌ بأنّ الإنسان العاصي يُلقي العِقاب في الدّنيا أيضاً إذا كان مُصرّاً على العِصيان، لكنّ التائب يُستثنى من ذلك.

إذن، تضعُنا الآية الكريمة في قلب الواقع الاجتماعي قبل الذي كان عليه الناسُ قبل حصول الطوفان العام، وقد أرسل الله النبي نوح فقال لهم: **[إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ]**. في الآية ما قبل السابقة. ومن كثر استفحال الفَساد في ظهرانيهم حتى النُخاع: **[فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا]** وهذه أول إشارة لرفضهم القاطِع لكل ما يقول، وبناءً على هذا الموقف السلبي الحاسم، استأنفوا قولهم لنبيّهم وقد تمادوا عليه: **[وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا]**. بمعنى: لم يتّبعكَ أحدٌ من السادة أو الأشراف، أو الوجهاء، أو الأغنياء.
[وَمَا نَرَاكَ]. استخدموا النَظَر، أي فقد رفضك الجميع على أرض الواقع وهو ينظرون إليك. **[وَمَا]** نرى أحداً منّا **[اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا]**. دراويشنا، وبُسطاؤنا.
[بَادِيَ الرَّأْيِ]. أي بشكل مندفع ومتسرّع في مبتدأ سماعهم بدعوتك، وما ذلك إلاّ لأنّهم درويش وبسطاء، ولا قيمة اجتماعية لهم. فمن بيننا جميعاً لم يتّبعك**[إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ]**. وقد اندفعوا إليك بشكلٍ متسرّع دون أن يُفكّروا جيداً.
و **[أَرَاذِلُنَا]**. بمعنى: أدنانا قيمة اجتماعية، وهم لا يُقدّمون ولا يؤخّرون شيئاً. فنحن إن استجبنا لك واتُبعناك، ساوينا أنفسنا بهم، وساويناهم بنا.

هذه هي عقليّة الإنسان المُستكبر، فهو بكل ما فيه يكون استكبارٌ في استكبار، وينظر نظرات استصغارٍ ودونيَّةٍ إلى الآخرين الذين يهديهم الله إلى الصراط المستقيم.
عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كانوا حاكة وحجّامين".
فالحقيقة أن هؤلاء الذين آمنوا على الفَور فهذا يرفع من شأنِهم، ويشير إلى مقدار ذكائهم وحكمتهم، حيث تبيَّن لهم الحق فاتَّبعوه دون تردد، لأن اليقين استقرَّ في قلوبهم، وعَلِموا بأنَّهم كانوا في ضلال، وأن نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى الهداية.

فهؤلاء هم أرفعهم شأناً، وكم من هؤلاء يعيشون في سائر المُجتمعات في كل زمانٍ ومكان. فينظر البعض إليهم نظرات استصغار، أو دونية، ولكنهم رفيعو الشأن عند الله سبحانه وتعالى، بل أن كثيراً من الخيرات التي تأتي للمجتمع يكون كرامةً لهؤلاء، كما أن صرف كثيرٍ من العِقاب عن المُجتمع يكون كرامةً لوجود هؤلاء في ظهرانيه.
[وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ].

[**وَمَا نَرَى**] بأعيننا على أرض الواقع [**لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**]. فلا يوجد لديكم شيءٌ هو أفضل من الذي لدينا، لا مالاً ولا جاهاً، ولا نفوذاً. فلو كنتم أفضل منّا على أرض الواقع، لنظرنا في الأمر، لكن: [**وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**].

وبالتالي: [**بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**]. تكذبون علينا حتى تستحوذوا على وجاهتنا وأموالنا، وتجعلوا لأنفسكم قيمة اجتماعية بيننا.

وبذلك فإن الذين [**هُمْ أَرَاذِلُنَا**]الآن، سيُصبحون سادتنا وأشرافنا. ولذلك لم يتردّدوا واتَّبعوكَ[**بَادِيَ الرَّأْيِ**]. كما لو أنَّهم لم يُصدّقوا أنك دعوتهم، فاندَفَعوا إليكَ اندفاعاً بشكلٍ تلقائي متسرّع.

إذن: تُظهِر الآية الكريمة هذه النزعة الدونيَّة في كينونة الانسان المُستكبر، فالأفضل إنسانيَّة بالنسبة لهؤلاء هو الأكثر سيادةً، أو وجاهةً، أو مالاً حتى لو كان بِلا دِين. بينما الإنسان المتواضع حتى لو كان سيِّداً، فإنَّه يُدرك بأن الإنسان يكون فاضِلاً بإيمانِه. وبذلك يُروى أنه عندما قيل للنجاشي عن المسلمين، سأل: أشراف الناس اتَّبعوهم أم ضعفاؤهم؟ فقيل له: ضُعفاؤهم. فقال: هؤلاء هم أتباع الرسل قبل. فهناك قالواعن المؤمنين: [**أَرَاذِلُنَا**]. وهنا قال عنهم: أتباع الرسل.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن بالحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد، فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجاً".

فالتواضع، هو أقرب طريق للعدل، والاستكبار هو أقرب طريق للظلم.

تَبِعات التعالي

[**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**] سورة هود، الآية٢٨

هذه هي المبادئ الأساسيَّة في الدعوة إلى الله: [**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**]. أي: لن[**نُّلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**]. بل نكتفي بدعوتكم إلى الهداية.

فجواباً على ما قاله: [**الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ**] في الآية السابقة، الآن: [**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ**]. فقد ذَكَروا النَظَرَ ثلاثَ مرّاتٍ في الآية السابقة، في الأولى: [**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا**]. ومرة: [**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**]. ومرة: [**وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**]. فيجيبهم بذات الكَلِمة: [**أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ**]. البيِّنة تُرى وتُحَسّ بذت الوقت، وهي بُرهان النبوّة. فكان سيدنا نوح عليه السلام يُقدّم لقومه براهين نبوَّته كـ [**بَيِّنَةٍ**] ملموسةٍ، تُرى وتُحَسّ.

وبعد هذه الثبوتيّات، يستأنف جوابَه لهم: [**وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ**]. الرحمة في هذا السياق يجوز أن تكون بمعنى الهداية، أي: [**وَآتَانِي رَحْمَةً**] بي وبكم، وهي هدايةٌ لي ولكم [**مِّنْ عِندِهِ**]. فالهداية الإلهيَّة في حقيقَتِها هي رحمةُ الله بِعِباده، لأنَّها تُبيِّن لهم الرشدَ من الغي، وتُخرِجهم من الظُلُمات إلى النور، من الاعوجاج إلى الاستقامة، من الظلم إلى العدل، من اضطرابات الكُفر، إلى سَكينة الإيمان. فتتحسَّن حياتُهم أكثرَ كلَّما اهتدوا بهدايَة

الله أكثَر، كلَّما تفاعَلوا مع تشريع الله أكثَر. فهذه رحمةٌ خالِصةٌ من عند الله، وهي محبَّة الله تبارك وتعالى للإنسان.
[**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**]. هُنا يجوز أن تكون البيِّنة والرحمة اجتمَعَتا في[**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**]. وبذلك يكون المعنى: فتعامَيتم عن النَظَر إلى هذه البيِّنة بأبصارِكم، كما تعامَيتم عن النَظَر إلى هذه الرحمة ببصائركم. فالذي يتعامى عن شيءٍ، مع المداوَمة يُصبح التعامي طبيعياً لديه، فوجود الشيء بالنسبة إليه وعدم وجوده سيّان رغم أنه ينظر إليه ويراه، لأنه ليس أعمى، بل يتعامَى. فيكون مثله مثل الذي لم ير ذاك الشيء: [**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**]الأعراف١٧٩. ولذلك عندما يرتكب الإنسانُ موبقةً لأوّل مرة، يكون مُتردِّداً ووجِلاً، ولكنه مع التكرار يعتاد عليها، ولم يعد يتحرَّك فيه التردّد أو الوجل، أو حتى الحَياء. عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ"[٢]. وليس المعنى ليفعل ما شاء، بل بمعنى: إن لم يستح الإنسان، سيفعل ما يشاء. لأن الحياء هو أساس العَفاف، الحياء من الله، ومن رسوله، ومن النفس، من الأهل، من المجتمع. والحياءَ من الله هو أساسُ الحياء، ومنه يتفرَّع كل حياء. وعنه صلى الله عليه وسلم: "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ".

إذن، البيِّنة منظورة، والرحمة محسوسة ، والبيِّنة تؤكِّد الرَحمة. والنبي ذاتُه هو، وهو رحمة من الله بالإنسان، لأنه يأتي من الله بما يُحسِّن للإنسانِ حياته، وما يجعله في الآخرة يتجنَّب النار، ويدخل الجنة. بل حتى وجود العلم المُتمكِّن من العِلم بدرجات متقدّمةٍ، هو بيّنة ورحمة من الله. [**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**]آل عمران١٨.
[**ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**]آل عمران٧.
[**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**]الحج٥٤.
[**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**]فاطر٢٨.
[**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**]المجادلة١١.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا"[٣]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى

[٢] صحيح البخاري
[٣] رواه أبو داود

الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ")[٤].

[**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**]. فنحن ندعوكم إلى بيِّنة الله وإلى رحمَته [**وَأَنتُمْ لَهَا**] مُحبّون، فالإلزام، هو استجابة بإكراه، وعدم الإلزام هو استجابة بحب. والحب هو أساسُ الاستجابة، وأساس الإيمان. فكيف نُجبركم على حب الله، وحتى لو أجبرنا كم، فإننا لن نفلح في ذلك، وأيضاً سنكون قد خرجنا عن أمر ربنا بعد الإجبار، والاكتفاء بالبَلاغ.

ما يُمكن استخلاصه من الآية الكريمة، هو أنَّكَ عندما تُصمِّم على الاعوجاج وتصرّ عليه، فإن الله عز وجل يدعكَ في اعوجاجِك، ولا يُكره عليك الاستقامة. ولكن في أي وقتٍ يمكن لك أن تتراجَع وتعود إلى ربّك.

آفة الجهل

[وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ] سورة هود، الآية٢٩

[**وَيَا قَوْمِ**]. استئنافاً لجوابه وشرحه المُفصَّل لقومه: [**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ**]. [**لا**] أطلب منكم [**عَلَيْهِ**] على ما أدعوكم إليه من الحق [**مَالاً**] كي أغتني به.

[**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ**]. فقد أرسلني الله لهدايتكم، وهو الذي يُثيبني.

[**وَ**]استناداً إلى ذلك: [**مَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ**]. فهؤلاء الذين آمنوا وتصفونهم: [**أَرَاذِلُنَا**]. لا أطردهم حتى لو آمنتم جميعاً بطردي لهم. فلا وجاهة ولا غِنى في الإيمان، ومَن يتّقي الله أكثر، يرتقي عند الله أكثر. فهؤلاء أولياء الله، ولن أطردهم مهما طلبتم مني ذلك.

الطرد هنا بمعنى الإبعاد. ويُروى أنهم قالوا: (يا نوح إن أحببتَ أن نتّبعكَ فاطرد هؤلاء الأراذل، وإلاّ فلن نرضى أن نكون نحن وهؤلاء في الأمر سواء). وقد حصل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً عندما طلب منه المشركون طرد المؤمنين كونهم فقراء، فكان أمر الله سبحانه وتعالى: [**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**]الأنعام٥٢.

فهذه نزعة الاستكبار التي يتّسم بها الإنسان غير المؤمن، فهو لا يُقيم للإيمان وزناً، بل أنّه يُقيِّم الناس بحسب غناهم ونفوذهم.

إذن: [**وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ**]. فهؤلاء الذين آمنوا يلاقون [**رَبِّهِمْ**] وهم مؤمنون به، صالِحون في أعمالِهم، مستقيمون في حياتِهم. و يظهر بأنّهم اتّهموهم بادّعاء الإيمان، ولذلك بيَّن نوح عليه السلام: [**إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ**].

---

[٤] رواه الترمذي

ثم استأنف قوله لهم: [**وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ تَجْهَلُونَ**]. تُصرّون على التمسّك بعقيدتكم الجاهلية.

التذكّر

[**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**] سورة هود، الآية٣٠

ما يزال الجواب مستمرّاً بتفاصيله: [**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ**]. بيانٌ بأنَّهم أصرّوا على طلبِهم بطرد الذين آمنوا وإبعادهم عنه، وكذلك بيان توضيحي عن عدم الاستجابة. فإن استجبتُ لكم بطردهم: [**مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ**]. [**مَن**] منكم قادرٌ أن يعصمني من عِقاب الله وقد خالفتُ أمره، فأنا أدعوكم إلى تجنّب عقاب الله من خلال الهداية، وأنتم تدعونني إلى التعرّض لِعقاب الله من خلال الضلال. ولذلك جاءت خاتمةُ الآية: [**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**]. هنا تم إدغام التاء الثانية بالذال، كما لو أن الأمر لا يحتاج إلى كثيرٍ من تفكير. وهو سؤالٌ وبذات الوقت جواب. فـ: [**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**]. كسؤال تعجّبي. و: [**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**]. أي تذكّروا بأن لا أحد يمكن له أن يعصمني من الله. كجوابٍ. وهذا شبيهٌ بما جاء في الآية ٢٤: [**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**]. والكلمة من التذكّر، والمعنى أن الجواب كامنٌ في الذاكِرة، لأن الإنسان يولد على فطرة الإيمان، وليس على فطرة الكفر، فكل إنسان يولد مؤمِناً، والكُفر هو عاملٌ خارجي مُكتسَب يتم إقحامه على الفطرة:

[**وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**]البقرة٢٢١.

[**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**]إبراهيم٢٥.

[**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**]النحل١٧.

[**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**]القصص٥١.

[**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**]الزمر٢٧.

والإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، يُعزّز التذكّر:

[**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**]الأعراف٢٠١.

فإذن من المؤكّد لا أحد يمكن أن ينصرني غير الله، لذلك: [**مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**].

حقائق الأنفس

[**وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**] سورة هود، الآية٣١

الآن بعد أن قدَّم لهم شروحاتٍ عن جوهر الدعوة إلى الحق في الآيات الثلاث السابقة، يبيِّن لهم علاقته كنبي مع الله عز وجل.

ثم يُبيِّن مفاهيمهم الخاطِئة عن الإنسان النبي، ويُصحّحها لهم. ويظهر أنَّهم كانوا يعتقدون أن نبي الله يملك حريّة التصرّف بأن يغني نفسه، ويغني مَن يشاء. فقال عليه السلام: [**وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ**]. جواباً على قولِهم: [**وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**].
الخزائن، جمع خزينة، والخَزن هو الحفظ: [**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**]الحجر ٢١.
فلا شيء قط لا تكون [**خَزَائِنُهُ**] عند الله، وهي خزائنُ الله سبحانه وتعالى:
[**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**]المنافقون٧.
إذن، فنبوَّتي لا تعني أن [**عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ**]. كي أغني بها مَن أُريد، أو أُغني نفسي.
[**وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**]. جواباً على قولهم: [**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا**]. فلا توجد لدي إمكانات كي أستطلع ما في قلوبِهم لأعرف إن كانوا يُظهِرون الإيمان لغاياتٍ دنيويَّةٍ، ويُبطِنون الكُفر، كما توصمونهم. فَمَن تقولون عنهم: [**أَرَاذِلُنَا**]. هم بالنسبة لنا: أولياء الله.
[**وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**]. من الملائكة جئتُ على شكل بَشَر، بل أنا بَشَر ابنُ بَشَر، حفيدُ بَشَر. وقد أصبتم في ذلك عندما قلتم: [**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا**] . نعم أنا بَشَرٌ مثلكم، ولستُ ملكاً من الملائِكة.
[**وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً**]. جواباً على قولِهم: [**بَادِيَ الرَّأْيِ**].
و [**تَزْدَرِي**] بمعنى: تنتَقص وتستصغر. لذلك قالوا: [**بَادِيَ الرَّأْيِ**]. أي لا رأي لهؤلاء وهم فقط يُظهِرون الإيمان، لكن المترسّخ في قلوبِهم هو الكُفر.
ويظهر من الآية الكريمة بأنَّهم طَلَبوا من نوح عليه السلام أن يُخبِرهم بأن هذا التسرّع لن ينفعهم حتى ينصرفوا عنه. فكان جوابُه حاسِماً: [**وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً**]. الخَير هنا هو العزّ والرخاء في الدنيا وفي الآخرة.
[**وَلاَ أَقُولُ**] كون: [**اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ**]. ولا علم لي [**بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ**]. فكيفَ أقولُ شيئاً لا علم لي به. [**إِنِّي إِذاً**] فيما لو قلتُ [**لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**]. أكون قد جعلتُ من نفسي أحد [**الظَّالِمِينَ**]. وليس أحد العادلين.
يتبيَّن في هذه المُناظَرة كيف أنَّهم يُطالِبوه بأن يخرج عن واقعيَّته البشريَّة، وهو عليه السلام يتجاوَب مع ما يقولوه بشرحٍ جميلٍ وسعة صدر، ويسعى ما أمكنه أن يُقنعهم بكلمات واقعيَّة.

ديدن الفاسدين

[**قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**] سورة هود، الآية٣٢

الجِدال هو حوارٌ تَناظريٌ، ونِقاشٌ مِن أجلِ بيانِ الصوابِ مِنَ الخَطأ، والوصول إلى الحقيقة. والجَدَل بِمعنى الفَتل، والمرأة تجدل شعرها عندما تفتله على بعضه البعض، فتكون بذلكَ جَمَعَت المفرَّق في جديلةٍ. كذلك الأمر بالنسبة للحبل، فيكون مَجدولاً عندما يكون مفتولاً على بعضه البعض.

ويبدأ الجدِال من المُبادرة، والشخص الذي يُبادِر بالذهاب إلى الطرف الأخر، يكون هو المُجادِل كونه القائم ببادرة المُجادلة، وعندما يستجيب الطرف الآخر، فيتحوَّل الجدال إلى حوارٍ.

وفي القرآن الكريم سورة باسم (المُجادَلة). يقول الله تعالى شأنه في الآية الأولى منها: **[قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ]**المجادلة١. هُنا بيانٌ بأن المرأة بادَرَت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجادلته، فاستجاب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ الحوار بينهما حول الخِلاف الذي وقع بينها وبين **[زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ]**. فالمرأة هي المُجادِلة في سورة (المُجادَلة). **[وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا]** وليس تجادلكما. بيانٌ بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تجاوَب معها، وبذلك فقد تحوَّل الجِدالُ إلى حوار. والمرأة كما يُروى هي خولة بنت ثعلبة، وزوجها هو أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت. وكان قد قال لها: (أنتِ علي كظهر أمي). فقالت: والله لقد تكلمت بكلام عظيم، ما أدري مبلغُهُ. وخرج أوس من البيت بعض الوقت، ثم عاد وهو يحاول أن يتقرَّب من زوجته، بُيد أنها قالت له: كلا والذي نفس خولة بيده، لا تخلصنَّ إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: (يا رسول الله، إن أوساً من قد عرفت، أبو ولدي، وابن عمي، وأحب الناس إلي، وقد عرفت ما يصيبه من اللمم وعجز مقدرته، وضعف قوته، وعي لسانه، وأحق من عاد عليه أنا بشيء إن وجدته، وأحق من عاد علي بشيء إن وجده هو، وقد قال كلمة والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً قال: "أنت علي كظهر أمي".

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أراكِ إلا قد حرمت عليه".

عندها اتَجهت إلى الكعبة وصارت تدعو: "اللهم إني أشكو إليك شدة وجدي، وما شقّ علي من فراقه، اللهم أنزل على لسان نبيك ما يكون فيه فرج. ومما قالت: إن لي صبية صغار إن ضممتهم إلي جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا).

وقد أنزل الله عز وجل في شأنها المخرج من هذه الحالة، فقال لها

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً".

ثم قرأ: **[قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ* الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ* وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ* فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ]** المجادلة١-٤.

ويبدو أن هذه المرأة كانت مُجادِلة بامتياز، فُيروى أنها قالت لعمر بن الخطاب وقد أوقفته: (يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الصبيان بعصاك،

فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف بالموت خشي الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب).

وكان عمر يسمعها وقد أحنى رأسه فقيل له: (يا أمير المؤمنين اتقف لهذه العجوز هذا الموقف. قال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلاة المكتوبة، إنها خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر).

إذن الجِدال هو السبيل لبيان الحق

وقد وضع القرآن الكريم أساسيّات للجِدال: [**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**]النحل١٢٥. ونظير ذلك يجنح البعض إلى الجِدال السلبي من خلال الاستهزاء بالطرف الآخر: [**وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**]الأنعام٢٥.

[**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**]غافر٣٥.

[**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً**]الكهف٥٦.

[**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**]لقمان٢٠.

[**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**]غافر٤.

يبيِّن الله عز وجل

[**وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ**]الشورى٣٥.

إذن تبيِّن الآية الكريمة بأنهم رفضوا دعوة نوح عليه السلام لهم بالعودة إلى الصلاح. فكان موقفهم: [**قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**]. وهذا هو ديدن الإنسان العنيد المتعجرف، فعندما تتقدَّم إليه البراهين الدامغة، ولا يبقى أمامه سوى أن يعترف بالحقيقة، فإنه يقطع الجدال: [**قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**]. فدعنا من جِدالِك الذي نرفضه.

[**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**]. الفاء هُنا إشارة إلى الاستعجال، أي: **إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ها نحن ننتظر[**فَأْتِنَا**] الآن [**بِمَا**] تُحذّرنا من العذاب.

مشيئة الله في العقاب

[**قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**] سورة هود، الآية٣٣

لم يصمت، ولم يرفض التجاوب معهم، كما هم رفضوا الاستمرار في الحوار، واتَّهموه بعدم الصدق. فلبث عليه السلام يُجادلهم بالحكمة والهدوء، [**قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**].

فهذا ليس من اختصاصي، وإن كانَ الله يُمهّل، فمن أكون كي أُعجّل. هو ربّي وربّكم، وأنا فقط نذير، وكما قلتُ لكم بأن إمكاناتي هي إمكانات بشريّة. فهذه مشيئةُ الله. فـ [**يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء**]. وعند ذاك ليس بمقدوركم، ولا بمقدور أحد أن يمنع هذه المشيئة في إيقاع العذاب عليكم. [**وَ**]مهما تكاثرتم ومهما كنتم متمكّنين وأقوياء: [**مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**]. بصادّين العذاب.

إشارات التحذير

[**وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**] سورة هود، الآية٣٤

شيءٌ آخرٌ أريد أن أقوله لكم رغم أنكم تقولون بأنني أكثرتُ جدالكم، وهذا صحيح، لأنه من كثر حرصي الشديد عليكم. فأنا لا أدعوكم إلى الفساد، بل إلى الصلاح، لا أدعوكم إلى الظلم، بل إلى العدل، لا أدعوكم إلى الكفر، بل إلى الإيمان بربّي وربّكم الذي خلقني وخلقكم، وشرّفني بالنبوّة. فإنني أحذّركم فيما لو استمررتم في عِنادكم: [**وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**]. وهذه إشارة بقرب وقوع العِقاب عليهم بعد قرونٍ من الدعوة، ومن الرفض.

[**هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**]. الذي أدعوكم للإيمان به تجدون أعمالكم عنده.

جُرم الافتراء على الله

[**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ**] سورة هود، الآية٣٥

تَبدو هذه الآية اعتراضيَّة، يتحدَّث الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام عَمّا وَقَعَ مع نوحٍ عليه السلام. وكما كان نوح يُتَّهَم نوح بالافتراء، فأنتَ أيضاً يا مُحَمَّد تُتَّهَم بالافتراء: [**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**]. أي أتى بالقرآن من عنده ونَسَبَه إلى الله.

[**قُلْ**]. أجبهم. وبذلك تكون هذه الآية الاعتراضيَّة امتداداً للآية١٣ التي استُهِلَّت بـ: [**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**]. تماماً كما استُهِلَّت هذه الآية. وكذلك أرشده الله بالإجابة: [**قُلْ**]. ثم استؤنِفَت الآية هناك: [**فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**]. ولم يستطيعوا، لكن رغم ذلك فحتى هذه الآية ما يزالون [**يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**].

الآن يأتي إرشادٌ آخر من الله عز وجل: [**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**]. بمعنى أن الافتراء جريمة، وإذا ارتكبتُ هذه الجريمة فعاقِبتها تعود علي.

[**وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ**]. لكن الحقيقة أنتم افتريتم لأنكم نسبتم كلام الله إلي، والافتراء في الحالتَين جريمة: [**وَأَنَاْ بَرِيءٌ**] كل البراءة [**مِّمَّا تُجْرَمُونَ**]. من خلال نسبكم القرآن إلي. وتقع تَبِعات[**مِّمَّا تُجْرَمُونَ**]. عليكم وليس علي.

عدم الابتئاس

[وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ] سورة هود، الآية٣٦

بعد كل هذه القرون من الدعوة، الآن يُطلع الله رسوله نوح على الغَيب، فيأتيه وحيٌ من الله تعالى ذكرُه: **[أَنَّهُ]**. ثم بجزمٍ وحسمٍ: **[لَن]**. أي بدون ذرّة واحدة من أمَل: **[لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ]**. فالذين هم معك**[لَن يُؤْمِنَ]**. غيرُهُم. وهذا علم الغَيب الذي لا يعلمه غير الله، ويُطلع مِن علم غَيبه مَن يشاء سواء من الأنبياء، أو سائر الناس في أي زمانٍ ومكان، وبمسبّباتٍ مختلفةٍ بحيثُ يصل الغَيب إلى الشخص، لكنه لا يكون نبياً ولا رسولاً لأنه لا يكَلَّف بالرسالة بل هو غَيبٌ لمسألة مُحددة على الأغلب تخص ذاك الشخص. والوحي كذلك يكون لغير الأنبياء والرسل أيضاً: **[إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ]**آل عمران٤٥.

[وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ]المائدة١١١.

[وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ]القصص٧.

[وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ]النحل٦٨.

ويمكن أن يعلم بعضُ الناس شيئاً من الغيب من خلال الرؤيا، وكذلك هناك إشارات تبلغ بعض الناس من خلال النظر إلى تقاسيم وجه شخصٍ ما، أو النظر في عينَيه، أو من حركاتٍ تبدر منه، أو حتى سماع صوته ولو عن بُعد دون أن يرى الشخص، فيكون على حذر من هذا الشخص، أو يأمَنه. هكذا بعض الناس يمنحهم الله سبحانه وتعالى نظرات ثاقِبة، أو حواساً تحليليَّة درّاكة بدرجاتٍ متقدّمةٍ، بل حتى حواساً زائدة عن غيرِهم يحدسون بها ما لا يحدس غيرُهَم. وهذه من مَكرمات الله لبعض الناس، ويُصبح لهؤلاء كِرامات متمخّضة عن تلك المكرمات الإلهيَّة. يقول الله تعالى شأنُه: **[إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ]**الحج ٣٨.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يَبْقى بَعدي منَ النُّبوةِ شيءٌ إلَّا المُبشِّراتُ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما المُبشِّراتُ؟ قال: الرُّؤيا الصالحةُ، يَراها الرَّجلُ، أو تُرى له"[٥]. ولا يقتصر ذلك على الرؤيا فقط بل أن الله عز وجل يُعاقِب الذي يؤذي ولياً من أوليائه. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ"[٦].

---

[٥] أخرجه أحمد والبيهقي

[٦] صحيح البخاري

إذن: الآن وبمقتضى وحي الله عز وجل، أُعلِمَ نوحٌ عليه السلام بهذا العلِم الغَيبي: [**فَلاَ تَبْتَئِسْ**]. جاءت كلمة [**تَبْتَئِسْ**] بالِغة الدقّة وهي تحتمل العديد من المعاني مثل: تكتئب، تغتمّ، تكترب، تقهر، تأسف، تحزن، وما إلى ذلك. فإذا وردت بكلمة من الكلمات المذكورة، لَما احتَمَلَت كل هذه المعاني.

[**فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**]. وكانوا يؤذون نوحاً عليه السلام كباراً وصِغاراً. ومن ذلك يُروى أن رجلاً كان يحمل ابنه على كتفه، وعندما رأى الابن نوحاً طلب من أبيه أن يعطيه حَجراً، ولمّا أعطاه الحَجَر، رمى به نوحاً. كذلك عندما رآه رجلٌ عجوزٌ يتوكأ على عصا وكان يصطحبه ابنه فقال لابنه: يا بُنِي لا يغرّنك هذا الشيخ المجنون. فأخذ العصا من أبيه وضرب نوحاً حتى شجّه.

هنا يرفع الله عن رسوله مشاعر الابتئاس التي يمكن أن تعتريه نتيجة طغيان قومه: [**فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**].

ويبقى هذا الإرشاد للمؤمنين على مدار الزمن، فمهما تقلَّبت الظروف، ومهما اشتدَّت الأزمات، عليه أن يصبر، وأن يتجنَّب الابتئاس. وبذلك يبقى بمعنوياتٍ مرفوعة، كون الابتئاس أول ما يصيب، يصيب المعنويات، فينهار المرءُ معنوياً إذا استبدَّت به مشاعر الابتئاس. وهنا تؤسّس الآية الكريمة معنوياتٍ مرفوعة في شخصيّة الإنسان المؤمن: [**فَلاَ**] ابتئاس مع الإيمان.

جزاء الظالمين

[**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**] سورة هود، الآية٣٧

هكذا يأتي كلُ شيءٍ بتدرّج، وكما أن الصالح يبلغ المَكرمات الإلهيّة بتدرّج، فإن الفاسد يبلغ العِقاب الإلهي بتدرّج. فرغم كل ما بَدَرَ من الناس من كُفر، فإنَّ الله تعالى شأنُه لم يُعاقِبهم، بل جعل لهم نبيّاً منهم، يُحدّثهم بوحي من الله. بَيدَ أنَّهم لبثوا مصرّين على ما هم عليه من فساد، وكان ذلكَ عامّاً في جميع الناس الذين كانوا يعيشون على الأرض، باستثناء نحو ثمانين شخصاً آمَنوا وأصلَحوا.

وغدت القرون تمضي وهم يرفضون الإرشاد الإلهي بالصَلاح، ولولبث الأمرُ كذلك للبثت الأرض للفاسدين. لكن الله تعالى ذكرُه لم يخلق الإنسانَ للفساد، بل خلقه للصَلاح، وعِبادة الله هي جَوهر الصلاح، فكل عِبادةٍ خالِصةٍ لوجه الله تعالى، هي مزيدٌ من الصلاح إلى الصلاح عند الإنسان: [**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**]الذاريات٥٦. ذلك أن الصلاح كلّه يكمن في العِبادة، ولا صلاح دون عِبادة. وكما أن العِبادة تُصلح للإنسان حياته، فإن الكُفر يُفسد له حياته، وكما أن حياة الإنسان تتحسَّن وتنضبط في العِبادة، فإن حياته تسوء وتضطرب في الكُفر.

من هنا: [**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**]. فقد خَرَجوا عن عِبادَة الله، وغدوا يستهزؤون بكل ما يدعو إلى عِبادَة الله. فالآن وبعد كل ذاك الإمهال تلو الإمهال، وهذا البيان الإلهي لهم من خلال نوح عليه

السلام، وإخبار الله: [**أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ**] . وبذلك مهما أمهَلَهم من قرونٍ أخرى، فلن يُضاف شخصٌ واحدٌ إلى الذين آمنوا، وسيلبث الفَسادُ مُستشرياً فيهم. وهكذا سيبقى الإنسانُ فاسِداً على امتداد الزمن. لكن الله سبحانه وتعالى، استخلَصَ الصالحين من هؤلاء، وعاقبَ الفاسدين الذين أخبر الله عز وجل بأنَّهم [**لَن**] يؤمنوا. وبذلك أتاح للبشريّة أن تبدأ من جديد بداية صالِحة مِن خلال الصالحين الذين أمر الله نبيّه بإعداد سفينة النجاة لهم.

فالآن مع هذه الآية الكريمة، تبدأ المقدّمات العَمَليّة للعِقاب الجَماعي الذي لن ينجو منه فاسدٌ واحدٌ على سطح الأرض: [**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**]. فهذه هي التحضيرات الأوليَّة لوقوع العِقاب، ولاستخلاص الصالحين ونجاتهم.

[**بِأَعْيُنِنَا**]. يحميه الله ويحفظه حتى ينجز السفينة، وهذا يبعث الطمأنينة لديه بأن العمل سيتم إنجازه بسلام.

جاءت [**بِأَعْيُنِنَا**]. للتعظيم، وهذا شبيه بقوله: [**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**]المرسلات٢٣.

[**وَوَحْيِنَا**]. أي بتعليماتٍ عن كيفيَّة صناعة السفينة، مثل حجمها، وطولها، وعرضها، وتقسيمها، وتقنيات الصنع حتى تحتمل مواجهة الطوفان الكبير دون أن تتعرَّض للأذى. لأن الذي حصل، لا يمكن لآيّة مركبة مائيَّة حديثة وبأعلى التقنيات الحديثة في عصرنا أن تواجهه دون أن تغرق. ويُروى أنه عندما تلقّى الأمر بصناعة السفينة قال: (يارب ما أنا بنجار. قال: بلى، ذلك بعيني. فأخذ القدوم وجعلت يده لا تخطئ، فكانوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، صار نجاراً). فهي مركبة استثنائيَّة ستُصنَع بأعين الله عز وجل [وَ] وفق [وَ] حيه في دقّة الصنع. وهذا يبيِّن بأن عليه السلام ما كان يعلم كيف سيصنع مثل هذه السفينة، وهي أول سفينة سيصنعها في حياته بدون خبرة. وأية سفينة، السفينة التي لا يمكن لأي بشرٍ أن يصنع مثلها على مدار الزمن البشري كله، السفينة التي صُنِعَت بأعين الله ووحيه.

[**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ**]. الآن سوف يقع العِقاب عليهم بعد الانتهاء من صنع السفينة، ويظهر أنه عليه السلام أراد أن يطلب إمهالاً من الله.

[**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي**] شأن عِقابي بـ: [**الَّذِينَ ظَلَمُواْ**]. وجاء حسم الله بذلك: [**إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**]. لأنه مهما أُمهِلوا، يعلم الله أنه: [**لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ**]. فقد انتهى الأمرُ، ولا بدّ أن يلقوا عِقاب إصرارهم على الطغيان: [**إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**]. قولاً واحداً. لذلك:[**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ**]. ومن هؤلاء: زوجته واعلة وابنه كنعان.

يتبيَّن لنا في هذه الآية الكريمة أن الله جلّ شأنُه، قبل أن يوقع العِقاب على الفاسدين، ينجي الصالحين. فجاء[**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**]. فلك نجاة الصالحين أولاً. ثم [**إِنَّهُم**] الفاسِدون المصرّون على الفساد بعنادٍ شديد [**مُّغْرَقُونَ**]. ثانياً. وهذا له وجودٌ في القرآن الكريم بحيث يتقدَّم ذكر النجاة على العِقاب مثل: [**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**]البقرة٥٠.

[**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**]الأعراف١٦٥.
[**ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ**]الأنبياء٩.
[**فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ**]النمل٥٧.

السخرية المردودة

[**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**] سورة هود، الآية٣٨

يشرع سيدنا نوح عليه السلام في صناعة السفينة، ويُروى أنه استأجر بعض العمّال لمساعدته، كما أن أولاده سام، وحام، ويافث صاروا يعملون معه. فكانوا يغرسون الأشجار حتى تكبر وتيبس، ويقطعونها، فيغرسون، ويقطعون، وينحتون. تقول الآية الكريمة: [**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ**] مع انهماكِه في العمل الدؤوب استجابةً لأمر الله، كان يلقى [**مِّن قَوْمِهِ**] السخرية. [**قَالَ**] رادّاً سخريتهم إليهم: [**إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**].

ولبث مستمراً في العمل، ويُروى أن الله عز وجل أوحى إليه: (أن عجّل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على مَن عصاني). فدام عمله نحو عشرين سنة من الغرس والقطع والنحت، ولا نعلم بوجود سفينة قبلها في التاريخ البشري، فتكون بذلك أول سفينة صنعها الإنسان. فكانوا يقولون له: (يا نوح ما تصنع؟ فيقول: أصنع بيتاً يمشي على الماء). فيسخرون منه: [**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**]. أنا أعلم ما الذي سيحصل وأصدّقه، وأنتم قد علمتم ما أنذرتكم به، لكنكم تتجاهلونه. [**فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**]. بمعنى أن سخريتكم مردودة إليكم.

إعلام مفتوح

[**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**] سورة هود، الآية٣٩

[**فَسَوْفَ**]. وعيدٌ مؤكَّدٌ لا يقوله إلاّ مَن كان واثِقاً مِمَّ يقول بنسبة مئة بالمئة.

إذن: [**فَسَوْفَ**]. أي بعد أن أنتهي من صنع السفينة: [**تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**]. الخَزي هنا يكون في الدُنيا، فيجدون عذاباً يُخزيهم، كون ليس كل عذاب يُخزى به الإنسان، فهو عذاب يحمل الخزي لصاحبه المستكبر المصر على الكفر بعِنادٍ شديد، ولذلك يمكن أن يُرفَع هذا اللون من العذاب عندما يتراجع العاصي عن الإصرار على العصيان ويستغفر الله ويتوب إليه: [**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**]يونس٩٨. لكن مع الإصرار على العصيان بعِنادٍ شديد: [**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ**

الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ]فصلت١٦. فهذا خزي الدنيا [**وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى**.

الأمر الآخر بالنسبة لعذاب الخزي أن الكافر لا يؤجَر عليه، في حين أن المؤمن يؤجَر على ما يلقى من أذى. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ" [٧]. وعن ابْن مسْعُود رضي الله عنه قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكاً شَدِيداً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ" قَالَ: فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَجَلْ"، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ، فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا") [٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ" [٩].
وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [١٠].

بل حتى لو تقصَّدَ ارتكاب الذنوب، لكنه تراجَع وندم، فإن الله غفور رحيم، ولا يلقى لا عذاب الخزي، ولا غيره، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أي كما لو أنه لم يُذنب وفق مغفرة الله، بل لو شاء الله سبحانه وتعالى استبدل سيئاته حسنات، لأنه ما أصرَّ على الذنوب، بل استغفر الله وتاب إليه، وأصلح من شأن نفسه، وانقلب من إنسانٍ فاسد إلى إنسانٍ صالح يُقدّم أعمالاً صالحة.
[**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**]آل عمران١٣٥.
[**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**]الفرقان٧٠.
[**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**]الأحقاف١٦.
[**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**]محمد٢.
فما يلقاه المؤمنُ من بعض الضيق أو الشدّة، لا يُخزى به، لأن الله عز وجل يُجنّب المؤمن كل أشكال الخزي مهما لقي من ضيق، بل يرتقي المؤمنُ وهو في ذروة ضيقه

[٧] صحيح البخاري
[٨] صحيح مسلم
[٩] صحيح مسلم
[١٠] رواه الترمذي

إلى مقامات التقوى، وبذلك فإن الله يتيح لعباده هذا الارتقاء من خلال الابتلاء أيضاً، فيكون الابتلاءُ سبباً في الارتقاء: [**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ**] من اعتداء الظالمين المتمكنين [**وَالْجُوعِ**] المحل والقحط [**وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ**] الخسارة المالية [**وَالأنفُسِ**] موت المقرَّبين أو إصابتهم بأمراض [**وَالثَّمَرَاتِ**] الأذى الذي يصيب المزروعات [**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**]البقرة١٥٥. الذين يوكلون أمرهم لله ويحتملون.

وهنا كما أن المؤمن يرزقه الله كذلك في الجنّة ويقيه عذاب النار بالذنوب التي ارتكبها، وغفرها له الله، فإن الكافر [**يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**]. في الدنيا [**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**]. في الآخرة. أي يبقى العذابُ قائِماً عليه حيثُ يكون في الجَحيم، لأنه ما اقام لله حدوداً، واستهزأ بالقرآن، وأنكر وجود الله، أو أشرك به، وسخر بما يؤدِّيه المسلمون من شعائر الإسلام. وبذلك لايستوي الصالِحون والفاسدون في الدنيا وفي الآخرة.

و[**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**]. في مُفتَتَح الآية الكريمة، تلبث مفتوحةً للناس جميعاً صالحين وفاسدين على مدار الزمن، فالجميع سيعلم [**مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**]. في الدنيا، [**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**]. في الآخرة.

نجاة المؤمنين

[**حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**] سورة هود، الآية٤٠

الآن تحقَّقَ وعدُ الله عز وجل بِعقاب المصرّين على الطُغيان، وأصبحَ هذا الوعد بحكم الواقع، وقد أصبحت السفينة على أهبّة الاستعداد لنجاة الصالِحين. فعندما يأتي أمرُ الله بعد الإمهال، فلا شيء يمكن له ان يعيقه، وتقع الضربةُ على الظالم الجائر في الصَميم ليكون عبرةً لِمَن اعتبَر: [**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**]البقرة١١٧.

[**وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ**]الأنعام٧٣.

إذن أمرُ الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة هو الوعدُ الذي جاء على لسانِ رسوله نوح عليه السلام في مستهل الآية السابقة: [**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**]. و: [**حَتَّى**]. في مُستهلّ هذه الآية هي الفترة الزمنيّة التي استغرقَت في صنع السَفينة. والآن الخطاب لله تعالى ذكره: [**حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا**]. أي بالفَيَضان العام.

[**وَفَارَ التَّنُّورُ**]. وهو الذي يُصنَع فيه الخبز. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا دعا الرجلُ زوجته لحاجَته فلتأته وإن كانت على التنور".

لكن كيف يفور التنور بالماء؟ الفوران هو الارتفاع، أي فاض التنور بالماء. وهذه أقرب إشارة للطوفان الذي سيبدأ، أي ستبدأ الكرة الأرضية كلّها تفور بالماء اعتباراً من لحظة فوران التنور. ولعلّ هذه كانت علامة من الله عز وجل، لسيدنا نوح عليه السلام حتى يُسارِعوا إلى السفينة، لأنَّهم كانوا على الأرض مع بقية الناس كونهم لا يعلمون متى سيقع الطوفان. وإن كان نوح يعلم بحدوث الطوفان، بَيدَ أنّه لا يعلم التوقيت

الدقيق لحصوله، فهو إذن في حالة ترقب وتأهّب. وبذلك فإن المؤمنين معه وهم [**قَلِيلٌ**]. أيضاً كانوا في حالة ترقّب وتأهّب، فكانت هذه هي العلامة. ولعلّه عليه السلام كان يُراقب التنّور بين حينٍ وآخر، حتى رأى بالفعل رأي العَين بأن الماء قد فار منه، لكنّه تنورٌ واحدٌ كما هو ظاهرٌ بصيغة المُفرَد، والأرجح يكون تنور بيته.

الفوران هنا يعني أن الماء سيخرج من تحت التنور حتى يمتلئ بالماء ويفور إلى الخارج، فيراه أي شخص يقع نظره عليه. فعند ذاك أدرك سيدنا نوح عليه السلام بأن الموعد قد حان، لكن سينتظر الأمر الإلهي في تلك اللحظات، لأنه لا يستطيع أن يتصرَّف من تلقاء نفسه. فيأتيه الوحي: [**قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا**] في السفينة [**مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**].

وهذا يبيِّن بأن السفينة كانت مؤلَّفة من طوابق ومداخل حسب إرشاد الله عز وجل.

[**وَأَهْلَكَ**]. الأهل هم الأقرب إلى الإنسان، كالزوجة والأبناء والأحفاد. ولذلك يُقال للرجل الذي يتزوَّج: تأهَّل، وكذلك المرأة: تأهَّلت.

[**إِلاَّ**]. باستثناء: [**مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**]. وهم الذين لم يؤمنوا مِن الأهل.

[**وَمَنْ آمَنَ**] الذينَ آمنوا مِن عموم القوم. [**وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**].

الحماية الإلهية

[**وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**] سورة هود، الآية٤١

الآن يستجيب سيدنا نوح عليه السلام لِما تلقّاه من الله عز وجل في الآية السابقة:

[**وَقَالَ**] تنفيذاً للوحي: [**ارْكَبُواْ فِيهَا**]. جاءت الكلمة دقيقة، وكان يمكن أن يقول: اصعدوا، وما إلى ذلك. لكن[**ارْكَبُواْ**]. وبذلك يُصبِحون رُكّاباً، والراكبُ مُدَّة ركوبه في المركبة تكون محدودة.

والراكب لا يركب المركبة إلاّ إذا أصبحت على وشك الانطلاق. وهنا بالفعل بدأ الانطلاق بعد الركوب: [**بِسْمِ اللّهِ**]. وهذا توجيه لأي راكبٍ وهو يركب أية مركبة أن يُسمّي [**بِسْمِ اللّهِ**]. و [**بِسْمِ اللّهِ**]. يكون له وللمركبة معاً. ولا يكون ذلك عند الانطلاق فقط، بل عند الوصول أيضاً. فهي تمضي [**بِسْمِ اللّهِ**]. وتقف عند الوصول [**بِسْمِ اللّهِ**]. فعندما تركب تقول: [**بِسْمِ اللّهِ**]. وعندما تنزل تقول: [**بِسْمِ اللّهِ**].

لكن هل يختلف شيءٌ في المركبة عندما تقول: [**بِسْمِ اللّهِ**]؟.

نعم يختلف، ولا شيء لا يختلف ما اسم الله سبحانه وتعالى، ولا يتساوى شيءٌ ذُكِرَ عليه اسمُ الله مع شيءٍ لم يُذكَر عليه اسمُ الله. وفي الآية السابعة وقفنا بشيءٍ من الشرح مع الماء الذي يُذكَر عليه اسمُ الله، يختلف عن الماء الذي لا يُذكَر عليه اسمُ الله.

[**ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا**]. تكون المركبة قد تحرَّكَت [**بِسْمِ اللّهِ**]؟.ثم عَطَفَ: [**وَمُرْسَاهَا**]. المرسى هنا بمعنى الوصول بسلام.

فالسفينة لم تكن فقط لِحماية مَن بِداخِلِها ريثما ينتهي الطوفان، بل ستمضي وترسي بهم في موضعٍ آخرٍ غير الذي كانوا فيه.

وباء الكفر

[**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**] سورة هود، الآية٤٢

[**وَهِيَ**]. يرد الفلك في القرآن بالتأنيث: **وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ** البقرة١٦٤.

وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ الحج٦٥.

إذن السفينةُ [**تَجْرِي**] تمضي مسرعةً [**بِهِمْ**] بِمَن فيها [**فِي مَوْجٍ**]. وسط هبوط وارتفاع الماء. [**كَالْجِبَالِ**]. حيث يعلو الموج بارتفاع الجِبال، ويهبط.

هكذا تُصوّر الآية الكريمة تفاصيل وقوع الطوفان الذي أغرقَ الكرة الأرضية برمَّتِها، بحيثُ لم يعد يظهر شيءٌ على سطح الأرض سوى الماء، ولا شيء يعلو الماء سوى السفينة.

ومن المؤكَّد فهي سفينة غير عادية ولا يمكن لبشرٍ قط أن يصنع سفينة كهذه تصمد في فيضانٍ عامٍ يشمل الكرة الأرضية كهذا، حيثُ تُصبحُ الأمواجُ بارتفاع أعلى جِبال الأرض. وليس هذا فحسب بل يكون اندفاع الماء بقوّة الجِبال على السفينة [**فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**]. أي كما لو أنَّها أمواجٌ مِن جِبال من شدّة قوّتِها.

وأقل من مثل هذا الطوفان يؤدّي إلى غرق أعظم سفينة يمكن أن يصنعها الإنسان. فهي السفينة الوحيدة الغير قابِلة للغرق بنسبة مئويّة، ولا توجد سفينة غيرها غير قابلة للغرق بنسبة مئويّة.

إذن: [**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**]. فيكون الماء في ذروة اضطرابه، لأن الموج لا يقع في سكون الماء، بل عندما يحدث له اضطراب، وهذا ما يمكننا تسميته بردّ فعل الماء على هذا الاضطراب، مثل حصول العواصف، أو أيَّة عوامل أخرى.

وهنا كان الماء ينهمر من السماء بغزارة شديدة، كما ينبع من الأرض بغزارة شديدة: [**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**]القمر١١،١٢. وبذلك تحوَّلَت الأرض كلّها إلى بحرٍ كبيرٍ، ولم تعد هناك بقعة واحدة من الأرض لم تغمرها الماء.

[**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ**]. عند الدخول إلى السفينة [**وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ**]. اعتزل أهله الذين دخلوا السفينة: [**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا**]. كن مع أهلك ومع المؤمنين.

[**وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**]. دون أهلك ودون المؤمنين.

عاقبةُ العناد

[**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**] سورة هود، الآية٤٣

نحن الآن مع بدايات الطوفان الكوني العام، وقد تجاوزنا مرحلة فوران التنّور. وهنا ما يزال الحديث ممكناً مع مَن هم في الأرض، بالنسبة لِمَن أصبحوا في السفينة. وهذا يعني أن أي شخص بإمكانه أن يدخل سفينة النجاة.

نادى نوح عليه السلام ابنه: [**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا**]. وهذا يعني أنه كان بإمكانِه الاستجابة لدعوة أبيه والركوب في السفينة، وبذلك يقي نفسه الغرق حتى وإن لم يكن قد آمن، لأن الكلام غير مشروط فيه الإيمان: [**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا**]. وهذه هي مشاعر الأبوّة التي تبقى تأمل الصلاح في الابن حتى اللحظات الأخيرة، وهذه المشاعر بثّها الله عز وجل برحمته في الإنسان.

[**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء**].

[**سَآوِي**]. مِن المأوى، أي المكان الذي يقصده المرء كي يأويه.

[**سَآوِي إِلَى جَبَلٍ**]. سألجأ [**إِلَى جَبَلٍ**] مرتفعٍ [**يَعْصِمُنِي**]. يحميني [**مِنَ**] وصول [**الْمَاء**] إلي.

وهذا بيانٌ بأن موقفه النهائي هو عدم الإيمان، والإصرار بعنادٍ شديدٍ على الكفر رغم حلول الخطر.

وهُنا نرى بأن الكُفر يقتل المشاعر الإنسانيّة في الإنسان، فلم يُقدّر مشاعر أبيه، بل ضَرَبَ بها عرض الحائط. ونظير ذلك نرى كيف أن الإيمان يُنمّي المشاعر الإنسانيّة في الإنسان، فرغم كفر الابن، لبثت مشاعر الأبوّة يقظة لديه، ولبث يُحاول معه حتى اللحظات الأخيرة، حتى أنه لم يذكر الإيمان كما ورد في الآية السابقة: [**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا**]. وقد أخبره الله عز وجل في الآية ٣٦: [**أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ**]. فرغم كل ذلك وفي ذروة هذه اللحظات الأخيرة، وذروة لهفة مشاعر الأبوّة لابنٍ أخبره الله سبحانه وتعالى بحسم: [**أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ**]: [**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**]. لكن مشاعر الابن لم تكن هكذا، ولم يكن مطيعاً لأبيه، بل عاقّاً له: [**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء**]. ورغم ذلك لم يتركه، بل استمرّ معه، بل أخبره بالوحي الذي تلقّاه بهذا الشأن لعلّه يركب السفينة: [**قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ**].

الطوفان عامٌ ولا شيء يمكن أن يجعل أي إنسانٍ معصوماً من الغرق [**إِلاَّ مَن رَّحِمَ**]. ولبث الابن في عِناده، ولم يستجب.

[**وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ**] فصل [**بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ**] وجَرَفه [**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**]. وهكذا كانت لديه فرص عديدة حتى اللحظات الأخيرة، بَيدَ أنّه لبث مصرّاً على الكفر. والله عز وجل يتيح للناس الفرص تلو الفرص ويمهلهم الإمهال تلو الإمهال حتى يتراجعوا ويصلحوا. وشمل ذلك حتى فرعون الذي كان يدّعي الألوهيّة: [**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**] طه ٤٣، ٤٤. لكن مع العِناد الشديد، والإصرار على الكفر، يأتي العِقاب: [**وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**]. فلا شيء يمكن أن يمنع وقوع العِقاب إذا أوقعه الله على الكافر المصرّ على كفره.

إشراقة الصلاح

[وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] سورة هود، الآية٤٤

الآن تحقق وعدُ الله بالعِقاب بعد كل قرون الإمهال، وولادة الأجيال الفاسدة تلو الأجيال، والإجماع على رفض النبي نوح عليه السلام، باستثناء القلّة المؤمنة التي أصبحت في السفينة.

[وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ]. جاءت كلمة **[ابْلَعِي]** بالغة الدقّة، وكان يمكن القَول: اشربي. وكانت الأرض ستشرب الماء، لكن الشرب يكون بطيئاً قياساً بالبلع. وهذا يُعلّمك شيئاً هامّاً، وهو أنك عندما تكون عطشاناً، فإنك قد تبلع الماء، ولا تشربه، فيكون من الإناء إلى حنجرتك فوراً، وهذا هو البلع.

والماء لا يُبتَلَع، بل يُشرَب، والإنسانُ يتنكَّه ويستلذ بشرّبه. فتتعلَّم هنا أن تجعل شربة الماء تصل إلى فمك بشكلٍ جيدٍ وخاصةً اللسان، وهكذا تشرب بأريحيّة.

فإذا راجعتَ نفسك قد ترى بأنكَ حرمتَ لسانكَ من وصول الماء إليه وأنتَ تشربه، لأنكَ كنتَ تبتلعه، ولم تكن تشربه.

لكن عندما يصل الماء إلى لسانِك وبعض مساحات الفَم وأنتَ تشربه، تتنكَّه به. والفرق يكون تماماً عندما تبلع قطعة لحم دون أن يتذوَّقها لسانُك وفمك، وعندما تمضغها وتستلذ بنكهتِها وأنتَ تأكل.

إذن البلع أسرع من الشرب، ولذلك: **[يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ]**. لأن النسبة كبيرة جداً حيث امتلأت الأرض كلها بالماء الذي غمر حتى أعلى جبال الأرض. وكذلك عندما جاء الطوفان فكان انهماراً من السماء ولم يكن هطولاً، وكان تفجيراً من خلال عيونٍ في الأرض، وليس سيلاناً عادياً: **[فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً]**القمر ١١ ،١٢. ثم كان اللقاء الأكبر بين الماءَين على الأرض: **[فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ]**.

وهكذا تحوَّلَت الأرضُ إلى بحرٍ كبيرٍ بأمواجٍ هائلةٍ **[كَالْجِبَالِ]**. والظاهر أن الله عز وجل قد فتح **[أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ]** وكذلك: فجَّرَ **[الْأَرْضَ عُيُوناً]**. ويجوز أن الله تعالى ذكرُه لم يكلّف ملكاً: **[فَفَتَحْنَا]** بنون العظمة، ولعلّ المعنى: **[فَفَتَحْنَا]** أي نحن الله **[أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ]** كذلك: **[وَفَجَّرْنَا]** نحن الله **[الْأَرْضَ عُيُوناً]**.

الآن تختلف الصيغة، فبضمير الغائب: **[وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ]**.

تستجيب الأرضُ وتبلع ماءها.

[وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي]. تمسك السماءُ عن الانهمار.

[وَغِيضَ الْمَاء]. الغيض هو القلّة، أي بقي غيضٌ من كل ذاك الفيضان، هذا الغَيض الذي تحتاجه الكائنات الحية على الأرض، كالبحار والأنهار وما إلى ذلك.

[وَقُضِيَ الأَمْرُ]. أوقعَ الله عز وجل العِقاب بالعُصاة.

[**وَاسْتَوَتْ**]. ثبتت السفينة [**عَلَى**] فوق قمّة جبل [**الْجُودِيِّ**] ونزل منها مَن كان بداخلها من الناجين.

هكذا رأوا أنفسهم في موضعٍ مختلفٍ عن الموضع الذين كانوا فيه، لعلَّهم يروه لأوَّل مرة، وأنه لم يبق أثرٌ للجنس البشَري على سطح الأرض غيرهم. [**وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**]. أي: هلاكاً [**لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**].

بدت الضمائر في الآية الكريمة مبنيَّة للمجهول منذ كلمتها الأولى وحتى خاتِمتها: [**وَقِيلَ**]. ثم [**وَغِيضَ**]. ثم: [**وَقُضِيَ الأَمْرُ**]. ثم: [**وَاسْتَوَتْ**]. ثم اختُتِمَت الآية بذات ضمير المجهول الذي استُهِلَّت به: [**وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**].

المجهول هنا من خلال الاستجابة له يُصبح معلوماً، لأن هذه الاستجابة لا يمكن أن تكون لأحدٍ قط سوى الله سبحانه وتعالى. فَمَن يمكن له أن يأمر الأرض بابتلاع الماء، وتستجيب له، ومَن يمكن له أن يأمر السماء بأن توقف الماء المنهمر منها، فتستجيب للأمر.

والأمرُ هنا حاسِمٌ ومُختَصَرٌ، فليس يا أيتها الأرض. على سبيل المِثال. بل: [**يَا أَرْضُ**]. باسمها المُجرَّد، كما لو أنكَ تقول لِمَن يكون تحت إدارتكَ: يا فُلان افعل كذا. فيمتثل للأمر. وهذا غير لو قلت: يا سيد فلان. بل تصدر الأمر العاجل له باسمه المُجرَّد للسرعة في التنفيذ. ولله المثل الأعلى.

إذن: [**يَا أَرْضُ**]. وهذا يعني بأن الأرض سمعت، ذلك أن الخِطاب يكون لشيءٍ يَسمع ويتفاعَل مع ما يَسمع. ثم أن الذي لا يَسمع، لا يستجيب، لأنه لا يَسمع. فقد سمعت الأرض واستجابَت على الفور لِما سمعت: [**ابْلَعِي مَاءكِ**].

فبلعت ماءها. ثم: [**وَيَا سَمَاء**]. كذلك جاء الخِطاب باسمها: [**وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي**]. فسمعت الأمر الموجَّه لها، وأقلعت عن انهمار الماء.

ثم: [**وَغِيضَ الْمَاء**]. نقصت كمّية الماء نتيجة ابتلاع الأرض له، وإقلاع السماء عن الانهمار، فبذلك: [**وَغِيضَ**]. نقص [**الْمَاء**]. حتى أصبح طبيعياً.

[**وَقُضِيَ الأَمْرُ**]. بذات السوية وفق ضمير المجهول، تمت معاقبة كافري الأرض جميعاً.

[**وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**]. فهذه هي الخُلاصة الصالِحة مِن البشر، وهم نحو ثمانين شخصاً بين رجلٍ وامرأة.

ثم اختُتِمَت الآية الكريمة: [**وَقِيلَ**]. باستمرار ضمير المجهول إلى نهاية الآية: [**بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**].

اتضح من الاستجابات بأن الأمر صادرٌ من الله جل شأنُه. كما أن الماء عاد إلى سويته الطبيعية على الأرض. [**وَقُضِيَ الأَمْرُ**]. بأمر الله.

[**وَاسْتَوَتْ**] بمشيئة الله [**عَلَى الْجُودِيِّ**]. وقد أبعد الله عز وجل القوم[**الظَّالِمِينَ**]. عن الأرض.

[وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ]القمر١٣، ١٤. حيث يصعب لأي بشرٍ قيادة السفينة في فيضانٍ ضخمٍ كهذا. كما يصعب لأي بشرٍ صناعة سفينة كهذه، لذلك: [وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا].

بين الإيمان والكفر

[وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ] سورة هود، الآية٤٥

رغمَ أن الابنَ رفضَ الركوبَ في السفينةِ، وتعرّضَه للغرق، إلاّ أن عاطفةَ الأبوّةِ لبَثَت متحرّكةً لدى سيدنا نوح عليه السلام، فلجأ إلى الله عز وجل مستفسراً من جهة، وسائلاً نجاة ابنه من جهة أخرى، والله قادرٌ أن يُنجيه حتى لو كان في قعر بحر.

الإستفسار: [إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي]. وكلمة الأهل ذكرها الله سبحانه وتعالى في الآية ٤٠: [قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ].

هنا وبقوّة أبوَّتِه أمسك سيدنا نوح عليه السلام بهذه الكلمة: [إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي]. ولا يعني ذلك أنه نسي: [إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ].

فهو نبي ولا ينسى وحي الله له مهما كان متقدّماً في السن، فقد كان عند وقوع الطوفان في نحو تسعمائة سنة من عمره. فليس [وَأَهْلَكَ] جميعاً، بل باستثناء [مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ] منهم.

ولم يكن[إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ]. فقط، عند الانتهاء من صنع السفينة وحصول الطوفان، بل قبل الشروع في صنع السفينة أيضاً في الآية٣٧، حيث كان الحسم: [وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ]. كما أن الابنَ أيضاً أصرّ على الكفر، ورَفَضَ الركوبَ في السفينةِ رَغمَ نداءِ الأبِ له: [يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ]. لكن الابنَ لَبِثَ مُتمسِّكاً بِكُفرِهِ: [وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ].

الآن يعودُ إلى الله بأبوَّتِه بعد أن انتهى الطوفانُ، وبعد أن: [وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ].

فَلَبِثَ قلبُ الأب النبي على ابنهِ الكافرِ الذي لَقي الهلاكَ نتيجة إصرارِهِ الشديدِ على الكُفر: [وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ]. فلم ينس ابنُه الكافرُ رغمَ وجودِ أبنائهِ المؤمنينَ معه: [فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ].

الموعظة الإلهية

[قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ] سورة هود، الآية٤٦

جاء الجوابُ حاسِماً هنا، ولعلّه الجوابُ الأكثر مباشرية الذي يجعله يهدأ.
[**يَا نُوحُ**]. هكذا أمام الأمور الحاسِمة يأتي خِطابُ الله جل جلالُه بالاسم، فَذِكرُ الاسمِ يجعلُ الانسانَ في انتباهٍ أكثر، وهذا يحصلُ بينَ الناسِ، فعند المواقف الجادة والحاسِمة، يُنادى الشخصُ باسمه.
[**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**]البقرة٣٥.
[**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**]المائدة٢٢.
[**قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**]المائدة٢٤.
[**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**]طه١١٧.
هنا: [**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**]. بياناً لقوله: [**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**].
لماذا ليس من أهله وهو ابنه، والأبناء هم من أهل الأب؟ جاء البيان الإلهي: [**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**]. وهذا لا يعني بأنه ليس ابنه، وقد قال الله سبحانه وتعالى بأنه [**ابْنَهُ**] كما جاء في الآية٤٢: [**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ**]. إذن، فهو ابنُه ومن صُلبه، لكن الكُفرَ يُخرجُ الكافِرَ من أهليَّته للمؤمن حتى لو كان ابنَه.
وبذلك فإن خيانة زوجتَي نوح ولوط لم تكن خيانة الزنا في بيانه تعالى: [**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا**]التحريم١٠.
فقد كانت واهلة زوجة نوح عليه السلام تَدَّعي بأن زوجها رجل مجنون، وكانت واعلة زوجة لوط عليه السلام تُخبر القوم عندما يحل ضيوفٌ على زوجها وذلك من خلال إشعال النار إذا كان الوقتُ ليلاً، وفي النهار من خلال الدخان. فالتي تفضحُ أسرار بيتها الزوجي تكون خائنة، والرجل الذي يُسرّب معلومات عن بلادِهِ للغير، يكون خائِناً.
وقد جاء هذا الاستثناء من الأهلية في الآية٤٠: [**وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**].
فالآن أصبح من الطبيعي: [**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**]. وفق [**وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**] . وما أفقد أهليته إليك: [**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**]. أي فقد صلاحية الأهليّة إليك من خلال إصراره على الفساد.
والفَيَضَانُ بِذاتِه جاءَ لِعِقابِ الفاسدين، ونَجَاةِ الصالحين، فلو بقي فاسدٌ بين الصالحين، لَما بدأت البشريَّةُ بعد الطوفان من صالحين فقط، وبالتالي لَمَا حقَّقَ الطوفانُ الغايةَ منه، وهي استخلاصُ الصالحينَ لتبدأ بشريةٌ جديدةٌ صالِحةٌ مِنهم. إذن: [**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**].
وهذا بيانٌ بأن الإنسانَ هو عَمَلُه، فما هو عَمَلُك؟ ذلك هو أنت. فَعَمَلُك أنت، وأنت عَمَلُك. فَبِعَمَلِهِ الغير [**صَالِحٍ**]. أصبح هو: [**عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**]. و [**غَيْرُ صَالِحٍ**]. من شأنه أن يُفسدَ الصالِحَ، ولذلك يُقصيه الله عن أهليتِهِ للصالِحِ.

[**فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**]. فالله عز وجل يعلم ما لا يعلم الأنبياء، وسائر الناس، وكل ما يأتي من الله عز وجل يكون عن علم.

[**إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**]. أي إذا استمررتَ في سؤال: [**مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**]. ويبقى هذا الإرشاد مفتوحاً لسائر الناس في كل زمانٍ ومكان، فبعض الأسئلة لا تؤدّي إلى العلم، بل تفضي بصاحِبها إلى الجهل.

[**إِنِّي أَعِظُكَ**]. وهذا إرشادٌ للنبي نوح عليه السلام، وقد عاش نحو تسعمائة سنة، فَمَن الذي يَسلَم من الجهل إذا استمر في سؤال [**مَا لَيْسَ**] له [**بِهِ عِلْمٌ**].

ما يمكن استنتاجه من هذه الواقعة، هو كما أن الله تعالى شأنُه، يقول لنوح عليه السلام: هذا شخصٌ غير صالِح، وكل الذي حصل هو من أجل أن نصطفي الصالحين حتى تبدأ منهم سلسلة بشريّة جديدة صالحة من نسلِ أُناسٍ صالحين تماماً، ولا فاسد واحد بينهم.

الأمر الآخر، فهذا الشخص لا يريد الإيمان، ومتشبّث بالكُفر، فهو الذي رفض أن يركب السفينة ويكون مع الصالحين، وآثر البقاء مع الفاسدين، وهذا قراره.

فإذا أنجى الله عز وجل شخصاً فاسِداً مع الصالحين، سيبقى للفساد أصل، ويكون الله قد أغرق أناساً لا يختلفون عن ابن نوح بالكُفر الذي أنجاه رغم إصراره على الكُفر حتى اللحظات الأخيرة.

والطوفان العام جاء ليستأصل كل ما هو فاسد على الأرض، ولا يترك سوى كل ما هو صالح. أمّا الذي يفسد بعد ذلك، فيكون قد ابتدع الفساد، ولن تكون له حجّة، لكن لو لبث ابن نوح الذي قال فيه الله عز وجل: [**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**]. للبث في الإنسان أصلٌ فاسِد.

تجنّب الخسارة

[**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**] سورة هود، الآية٤٧

الآن بَلَغَته الموعظة، وهذا هو الإنسان السوي السليم، فهو يزداد صَلاحاً كلّما استجاب للموعظة الإلهية أكثر.

فبعد أن تلقّى ما تلقّى: [**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**].

فاستناداً إلى أن الله دوماً يعلم ما لا يعلم الإنسان، وهو يعرف مصلحة الإنسان أكثر من الإنسان، يكون المرجع دوماً إليه، وما يأتي منه يكون عين الصواب.

فقد يحصل أن الإنسان نتيجة بعض نقاط الضعف يسأل الله أشياءٍ لا يرضاها الله، وتكون مُخالِفة لشرعه، كون الإنسان لا يعلم كل شيء، ولكن الله الذي يعلم كل شيء لا يستجيب له، لأن هذه الاستجابة يكون فيها الأذى للسائل نفسه، وكذلك لغيره.

هنا يستجيب الإنسان للعظة الإلهية، لذلك: [**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**] ثم استأنف: [**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**]. لأنني أكون خسرتُ رضاك عني.

سلام الله وبركاته

[**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**] سورة هود، الآية٤٨

[**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ**]. كذلك جاء النداء باسمه، ورغم أن النداء هو واحدٌ وبذات الاسم، إلاّ أنَّه مُختلفٌ عنه في الآية ما قبل السابقة: [**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**].

هنا بدل: [**قَالَ**].جاء: [**قِيلَ**]. بضمير الغائِب. لكن: [**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**]. بيان ضمير الغائِب:[**مِّنَّا**]. من الله.

فهُناك كان نداء موعظة وإنذار: [**إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**].

وهُنا نداء رضى وقبول قوله: [**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**].

إذن: [**يَا نُوحُ اهْبِطْ** انزل من السفينة [**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**]. طمأنينة له بأنه سينزل سالِماً بعناية الله، كونه سينزل في مكانٍ لا يعرفه، ثم أن ليس كل مَن يصل إلى مكانٍ بسلام، ينزل من المركبة بسلامٍ أيضاً. فالنزول قد يصطحبه قلق كونه سينزل على الأرض التي خلت من رائحة الإنسان، ولا أحد قط غيره ومَن معه. فجاءت عبارة [**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**]. بالغة الدقّة، فالنزول [**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**]. ومكان النزول[**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**]. وليس هذا فحسب، بل: [**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**]. فالسلام لوحده لا يكفي، فتأتي بركة الله لتجعل حياة الإنسان جميلة ومزدهرة.

يتبيَّن هنا بأن الإيمان هو أصل أن ينعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بسلامه وبركاته، وأن الكفر هو أصل حرمان الإنسان من سلام الله وبركاته.

[**وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**] في السفينة الآن. لماذا؟

يأتي البيان في الجملة التالية: [**وَأُمَمٌ**]. ستتكاثر من هذه الأمم الموجودة معك في السفينة. والذين يستمرّون في الصلاح سيبقون [**بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ**]. أمّا الذين ينحرفون ويطغون: [**سَنُمَتِّعُهُمْ**]. نمهلهم الإمهال تلو الإمهال، ونغدق عليهم من ألوان المتاع، وينتفع منهم من فرص الإمهال فيستغفرون ويتوبون، والله غفور رحيم. أمّا الذين يُعانِدون ويستكبرون ويزدادون فجوراً وطغياناً في الأرض: [**ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**]. في الدنيا قبل الأخرة. [**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**]النحل٦١فهذا النجاة لا يعني أن الذين سيتكاثرون من أصل هؤلاء الصالحين، إذا طغوا وظلموا، لن يُعاقَبوا، بل: [**يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**].

ما يمكن استنتاجه من الآية الكريمة، هو ألاّ ينغرَّ الإنسانُ بِما يُمتّعه الله من ألوان رغد العيش، فكل ذلك حتى يزداد الصالح صلاحاً، و يتراجع الفاسد عن فساده. [**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**] لقمان٢٢. ولكن إذا أصرّ الفاسدون على فسادهم: [**نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ**]لقمان٢٤. فالصالح يتمتَّع بهذا المتاع الذي ينعم به الله عليه، وينفع به غيره أيضاً مغتنماً مقدرته ونفوذه المالي فيزداد بذلك صلاحاً على صلاح وإيماناً على إيمان. والفاسد يتمتَّع به كذلك، لكنه يبطر ويؤذي غيره مستغلاً مقدرته ونفوذه المالي، فيزداد بطشاً وجوراً.

نصر المتّقين

[**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**] سورة هود، الآية٤٩

كل هذه الأحداث التي حصلت في الطوفان، غابَت عن الناس بحكم الزمن، وقد ورد الطوفان في التوراة، لكن ليس بهذه التفاصيل، إضافة إلى ما وقع من تحريفٍ في التوراة كما يُخبر الله جل جلاله في القرآن. فهناك تشابه بين ما ورد في كثيرٍ من الأساطير حول الطوفان، وبين ما ورد في التوراة. وهذه الآية الكريمة تؤكّد ذلك في مفتتحها: [**تِلْكَ**]. أي ما جاء في الآيات السابقة عن طوفان نوح: [**مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ**]. لبث غائباً. [**نُوحِيهَا**] نوحي الأنباء الآن [**إِلَيْكَ**] يا مُحمَّد [**مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا**] الوحي. وهذا هو المُراد مِمّا ذُكِرَ في[**تِلْكَ**] الآيات. فقد صبر نوح نحو تسعة قرون ولم ييأس. ويبقى الإرشاد الإلهي مفتوحاً لكل مؤمن:

[**فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**]. وهُذا وعدٌ من الله عز وجل بأن صبر المتّقي يتكلل بالنصر. فلا بدّ للعاقِبة أن تكون [**لِلْمُتَّقِينَ**].